سيرة الفاتح

تأليف نامق كمال بك

تعريب عبد الله أفندي مخلص

مطبعة الكرمل بحيفا 1910

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لمن جعل سير الاولين عبرة للآخرين وصلاة وسلاماً عَلَى سيدنا محمد المختص بالفتح المبين وعلَى اخوانه سائر الانبياء والمرسلين وآلهم واصحابهم اجمعين و بعد فلما رأيت افتقار اللغة العربية الى سيرة عظيم من اعاظم رجال العالم الا وهو محمد الفاتح الذي احكم قواعد السلطنة العثمانية واعلَى منارها اقدمت عَلَى تعريبها عن رسالة للمرحوم نامق كمال التركي الذي فعل قلمه في توثيق عرى الشوري التي لا انفصام لها اكثر من فعل السيوف البتارة لانه بمقالاته الحماسية وكتاباته الوطنية اعدَّ نفوساً أُشربت حب الوطن واعتدَّت الموت في سبيله حياة ما فوقها حياة حتى تمكنت والحمد لله من هدم كيان الاستبداد ودرس معالمه ·

وقد اخترت هـذه الرسالة لانها جمعت فاوعت

واعطت كل ذي حق حقه ووقفت ريعها عَلَى الاسطول العثماني الذي بداء غريباً في عهد ذلك السلطان العظيم وسيعود كما بداء بسخاء اكف العثمانيين الذين اجابوا داعي الوطن واخذوا بالتعاون عَلَى البر والتقوى فعسى ان يتقبل الناطقون بالضاد هذه الرسالة قبولاً حسناً وان تلاقي منهم ما يستحقهُ الموضوع من العناية

في غرة المحرم سنة ١٣٢٨

حيفا: عبدالله مخلص

هو السلطان محمد ابو الفتح سابع السلاطين العثمانيين ولد في ادرنه «اندريانوبيل» في اليوم السابع من شهر رجب الفرد لسنة ثمانماية وثلاث وثلاثين من الهجرة النبوية ولما ترعرع ولي على مقاطعة اماسيا تبعاً للقاعدة المألوفة اذ ذاك التي كانت من اكبر العوامل في نجاح الدولة الباهر ومجدها الاثيل

خُلق الفاتح وفي خلقه شممٌ واباءٌ فلا يكاد ينقاد الى التعليم ولا يدخل تحت سيطرة مسيطر لشدة طبعه وامتزاجها بسورة الشباب الى ان تولّى امر تعليمه المنلا كوراني وهو ممن جمع بين العلم والورع تلك الخصلتان اللتان قلما اتفقتا برجل فأدَّب تلميذه واحسن تاديبه غير ملتفت الى انه سيكون يوماً ملكاً فيسعى الى استمالته او التملق اليه بل رمى الى جعله خير كفوءٌ لمنصبه القادم فلم يأل جهداً بتثقيف عقله وتنوير ذهنه بشدة ومضاء لا يهمه ان رضي عنه ام غضب احسن اليه ام اساء

ومن ذلك ان الاستاذ لأول مرة من دخوله عَلَى

الامير اقل بيمينه عصا فلما رآها الامير اشتغل ذهنه ولم يتمالك ان سأله عنها فأجابه الاستاذ « ان والدك علم بتمردك عن التعلم فأمرني ان أؤدبك بهذه العصا اذا عصيت امري »

سمع الامير هذا التهديد والوعيد ولم يكن يتوقعه او يعتد سماعه فانقبضت نفسه وقطب حاجبيه ولكنه لم يسعه الا الانصياع والخضوع مكرهاً كالشبل الذي يقع في قبضة الصياد ولا يجد مناصاً او مهرباً

اخذ الفاتح بالتعلم شيئاً فشيئاً وذاق طعم العلم فوجد ان لذته فوق كل لذة حتى وفوق لذة الجلوس عَلَى مقاعد الحكم والاستئثار بالسلطات التي طالما تاقت اليها نفسه وشغلت قلبه ولبه

نشأ الامير عَلَى هذه المبادئ النبيلة واخذت مواهبه بالظهور فتوسم فيه والده الجليل مخايل الذكاء وآثار النجابة وهو لم يتجاوز اربعة عشر ربيعاً واراد ان يستخلفهُ في الملك وهو في قيد الحياة لاعتقاده ان تخت السلطنة والآلة الحدباء التي تقل الاوائل عَلَى هام الاواخر سواء

وان العظيم من تخلىّ عن وسائط عظمته وهو قابض عليها لا من سعى للوصول اليها فابدى بذلك شعوراً دقيقاً ونفساً وضيعة واستلم الفاتح زمام السلطنة في ريعان الشباب ومقتبل العمر

ولشدّ ما كان انفعال رجال السلطنة الذين اعتادوا في ماضي ايامهم العبث بالامور لما كانوا يجدونه من الاحسان ازاء سيئاتهم من والد الفاتح الشيخ الرؤوف عندما رأوا عزم السلطان وحزمه لانهم كانوا يتوقعون الاستيلاء عَلَى الاعمال كلها بعد ان وضعت تحت يد صبيٍّ حديث السنّ قليل الاختبار كالسلطان محمد ولما خاب فألهم وضاقت بهم السبل عمدوا الى اتباع اساليب التملق تحت استار الاخلاص شأن المنافقين الذين يتربصون الفرص وبالتالي حصلوا عَلَى غايتهم

وذلك ان صاحب قرمان الذي اعتقد بانفتاح باب الامل له من اعتزال السلطان مراد (والد الفاتح) وصباوة السلطان محمد فبنى عَلَى ذلك علالي الامال وقصورها

قام بحشد فئة صليبية كبيرة تحت قيادة جان هونياد من ابطال المجر جمعت بين المجري والبولوني والجرماني والقرواتي والبوسني والافلاقي والبغداني والصربي والالباني يلغ مجموعها ثمانين الف مقاتل

وما عتمّ هذا الجيش الجرار ان زحف عَلَى البلاد العثمانية كأنه عصابة اشقياء بدون سابق اعلان او انذار واخذ يسوم الاهلين سوء العذاب يذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم حتى ملئت نواحي بلغاريا نواحاً وهاج اهل العاصمة وماجوا ووجد الوزراء في طيات ذلك فرصة لنوال مآربهم فتشاوروا واجمعوا امرهم عَلَى استدعاء السلطان مراد بالنظر لاشتداد الازمة وخشونة المركب ورفعوا ذلك الى السلطان محمد

نظر السلطان محمد الى هذا الامر نظرة عاقل لبيب وسبر غوره وادرك سره فلم يشأ الانقسام في الرأي رغم اعتقاده باعتماده عَلَى نفسه وعَلَى زغنوس باشا بانه سيخرج من هذا المأزق الحرج ظافراً ويتمكن من صون بيضة

بلاده والذود عن حوضها

قلنا انه لم يرد الانقسام لانه كان بين عوامل جمة اقلها قد يكون سبباً مهماً للفشل فاقناع الشعب عَلَى كفائته (هو نفسه) لحل هذه العقدة حلاً مرضياً ووجوده هو ووزرائه عَلَى طرفي نقيض ومقاومته ارجاع ابيه الى السلطنة مع انها كانت من عطائه وبالتالي تحمل اعباً هذا الوقر الثقيل ضد الرأي العام امور تستوقف الفكر وتستدعي العناية فوافق عَلَى قرار وزرائه ومشيريه مضطراً لا مختاراً

اما السلطان مراد فلما اطلع عَلَى هذا القرار عرف ان به دخيلة ورفضه رفضاً باتاً بيد ان الحالة كانت تزداد خطورة والامر يتضاعف تعقيداً والسلطان محمد لا يرى في الرجوع عن عزمه صواباً لئلا يسخط الشعب ويتطيّر من رفض السلطان مراد فألزم والده الرجوع بقياس مقسم هذا هو نصه « ان كان هو وليّ امر هذه المملكة فليسرع لانجادها وكبح جماح الاعداء عنها وان كنت

انا ولي امرها فقد اوجب الله عليه طاعتي »

وانتهت هذه الازمة بانتصار وارنه العجيب فقام الوزراء ينددون من جهة بصباوة السلطان وشدة مراسه ويستفزون الجند في اماكن الصيد والقنص للمطالبة بالسلطان مراد حباً باستتابته وترغيبه الى السلطنة ويحرضون من جهة اخرى السلطان محمداً عَلَى مباداءة والده بهذا التكليف قائلين له « ان رغبة والدكم عن السلطنة وزهده بها امر تعتقدونه فلو كلفتموه مرة للرجوع اليها لكنتم تقومون بواجب برالوالدين وتحصلون عَلَى رضائه

وجد هذا التكليف مكاناً خالياً من قلب الفاتح فتمكن وعاد السلطان مراد الى الاستواء عَلَى عرش السلطنة بعد ان اجتمع جمّ غفير وطلبوا اليه ذلك فعاد السلطان محمد بصفقة المغبون الى مقاطعة مغنيسيا الى منصبه الاول وفي صدره حزازات مما تلقاه من دروس الاختبار ومما لقيه زغنوس باشا في سبيله من الذلّ والازدراء

ان هذا الحادث يعد محنة بالنسبة الى السلطان محمد

ولكنه كان بالنسبة الى الدولة منحة عظمى وسعادة لا تقدّر

ومن البديهي ان اعظم مدرسة لعظماء الرجال هي دار الهوان وان اقوى مهذب واصلح مصلح للنفوس العالية هو الصغار والاحتقار

وقف الفاتح ايام عزلته الطويلة لطلب العلى فكان يستفيد من درس نكبتهِ مواعظ وعبرا ويستفيض من العلم غرراً ودرراً حتى يتمكن من التوفيق بين العلم والحكم

وقد ازهرت مساعيه واثمرت بتعلمه اللغات العربية والفارسية واللاتينية واليونانية والعبرية (لكونها تمكنه في العربية) التي توصل بها جميعها الى كنوز الشرق وحصل معها عَلَى ذخائر الغرب فلم يغادر صغيرة او كبيرة الا احصاها. اما العلوم العقلية والنقلية فانه برع باصولها وفروعها واطلع عَلَى سرائر ادارة الحكومات الى حد يمكنه معه ان يسير بحكومته عَلَى خطوات ثابتة وصراط مستقيم

استتم الفاتح ما يلزمه من العلم وبقي في مغنيسيا ينتظر

ما يأتي به القدر الى ان وافاه خبر وفاة والده المبرور
نخشيةً من ان يلعب معه خليل باشا الوزير الاكبر دوراً
ثانياً ويرجع صفر الكف خالي الوفاض من السلطنة
امتطى صهوة جواده وخاطب من حوله قائلاً « من
كان يحبني فليتبعني » وسار في طريقه لا يلوي عَلَى شيء
حتى وصل الى ادرنه

كان الفاتح ربعة قوي العضلات ضخم الاعضاء
عريض ما بين المنكبين غزير شعر الحواجب مقوسها
ابيض اللون مشرباً بحمرة فاحم الشعر كث اللحية قصير
العنق يسبقه رأسه الى الامام عند مشيه اما بقية اوصافه
التي تدل دلالة واضحة عَلَى دهائه المفرط وذكائه النادر
ونظره البعيد ومرحمته الغريزية وحبه الظهور وكفائته
للحروب فهي سعة جبينه ونقاوُه ونور عينيه الجوال
الذي يخترق استار الحجب وانفه اللطيف القائم عَلَى قمة
فمه الوردي

استقبل الجند سلطانهم الجديد ولم يبق للروابط

القديمة بينها عين ولا اثر لانهم فارقوه صبياً صغيراً وانستهم الايام ما آنسوه فيه من الهمة والكفاءة حتى انهم لم يكادوا يذكرونه لتغيير شكله وزيّه وقد تمثل امامهم بطلاً ضخماً يحاكي اجداده العظام مما ادّى بهم الى الهنأ بعد ذلك العناء الذي عقب وفاة ملك كان ينتقل بهم من نصرٍ الى نصرٍ ومن ظفرٍ الى ظفرٍ

وكأننا بهم يرددون قول الشاعر:

« هنأ محا ذاك العزاء المقدما فما عبس المحزون حتى تبسما »
« ثغور ابتسام في ثغور مدامع شبيهان لا يمتاز ذا الشبه منهما »

ولم يبق بين ذلك الحشد الغفير من لم تشمله لذة الفرح او تاخذه نشوة الطرب الا خليل باشا و بعض اشياعه اما السلطان فهو الوحيد الذي كان باكياً ضاحكاً كئيباً مسروراً في آن واحد

دخل الفاتح العاصمة بين هتاف الشعب وتحية الجند وغداة اليوم الثاني عقد الديوان العالي لاجراء مراسيم البيعة فلحظ الفاتح على خليل باشا انزواءه الى

جانب القاعة وهو بين الخوف والرجاء واليأس والامل نقرأ على وجهه سور الاضطراب لما فرط منه في جنب السلطان فقال الفاتح لماذا لا يحضر الوزراء · مروا خليل ان يتبوأ مقعده واظهر بذلك انه ارفع من ان يقتص عن اساءة كانت موجهة لشخصه وكان هذا العفو الجليل فاتحة كتاب سلطنته وباكورة اعماله في يوم الخميس لستة عشر من محرم الحرام سنة ٨٥٥ هجرية والسلطان في الثانية والعشرين من عمره

ان اول عدو وجده الفاتح في طريق سلطنته هم القرمانيون · اعتادت هذه العائلة القرمانية منذ بدأ ظهور الدولة العثمانية ان تراقب اعمالها عن كثب وتظن في نفسها الكفاءة ونسيت او تناست ما سبق لها من الوقائع معها وما قاسته من الغلبات المتواليات التي ذاقت وبال امرها ورزحت تحت اثقالها آمادا طويلة فكانت لاتني لحظة عن ايقاظ الفتن النائمة كلما سنحت لها فرصة وسمح لها زمان وتجمل غلباتها السالفة على دربة ودراية

مديري دفات تلك الحروب الطاحنة من العثمانيين وتعلل النفس بامال كلها اضغاث احلام ولذلك كانت تعيد الكرة كلما تولى سلطان عن الملك وتولى عليهِ آخر فما كاد ينتشر خبر ارتحال السلطان مراد الى دار الجنان الا وقام ابراهيم بك زعيم تلك الحكومة المغرورة ناسياً عظم الندامة التي تحل بمن يجرب المجرَّب

قسم ابرهيم بك جيشه الى اربعة فرق وقاد احداها بنفسه الى علائيه وارسل الثلاث الباقيــة الى جهات كوتاهيه ومنتشا وآيدين تحت قيادة احد زعماء ملوك الطوائف ومذ تلقى السلطان الفاتح هذا الخبر ولى اسحق باشا منصب امير امراء الاناضول وارسله لمقابلة العدو ومناقشته الحساب وتوجه هو الى بروسه ليعنى بدفن جثة ابيه و يلاحظ صفوف الدفاع الاحتياطية التي اقامها لحفظ مركز الجيش

وصل الفاتح الى مضرب الجيش فقام الانكشاريون يطالبونه بخراج توليه السلطنة وقد اصبح ذلك بدعة سيئة منذ

حدثت حادثة تيمورلنك واضطرب حبل المملكة فهم لا يدخرون وسعاً في الحصول عَلَى هدية او عطاء من كل سلطان ولو ادى ذلك بهم الى الخروج والعصيان

فاضطر الفاتح الى بذر بعض بدرات من الذهب عَلَى رؤوسهم مراعاة لنظامهم الفاسد وجرياً عَلَى مجراه ولكنه اعار هذا الحادث الجلل جانب الاهمية وراى باصيل رأيه ان الاسفار الحربية للذب عن الوطن واقامته عَلَى اسس قوية تحتاج الى كبير طاعة وعظيم دربة من الجيش والجيش عَلَى ما هو عليه من اختلال الشأن واعتلال الكيان فوجدان من العدل عزل بعض امراء الجند وتأديب مذكي نار الفتنة وقضى بذلك عَلَى روح سيئة قد تسري الى قلب الجند فتقلب اخلاقه وتستبدل حسناته بسيئات

ومن جملة ما ارتآه للقضاء عَلَى هذه الامال الساقطة اخراج الوف كثيرة من حرسه الخاص واعادتهم للعيش حتى يتمكن من القاء الشقاق بين تلك الجنود فيمنع

وقوع الاتفاق خفية بينهم او القيام ببعض اعمال ضد السلطة وبعدان مهد هذا السبيل وامن شره المستطير عاد بكليته الى القرمانيين والتحق بجيشه الذي عهد به الى اسحق باشا بسرعة كادت تكون من الخوارق لانه نهب الارض نهباً وطوى المسافات الشواسع طياً

راى العدو هذه الحركة الهائلة وهو لم ينس يد العثمانيين الطولى في قراع الكتائب وقدحهم المعلى في تفريق الصفوف فأخذ بالتقهقر بدون ان يبدي ادنى مقاومة حتى اذا تضامت فرقه المتفرقة تحصنت جميعها بجبال طاش ايلى الشواهق ولم يرَ بدا من الرضوخ لشروط العثمانيين التي حطت قدره وانزلت من كرامته راضياً من الغنيمة بالاياب وحاصلاً عَلَى امان السلطان وعفوه

لما رأى الفاتح انتصار جنوده لاول مرة بمجرد اقدامهم بالاقدام قبل ان يضطروا لمساعدة السواعد نشأ في قلبه حب" فتح القسطنطينية تثبيتاً لدعائم مملكته وحفظها من كل طارئ ومفاجئ

نعم كانت القسطنطينية اذ ذاك قليلة عدد السكان ولا يتبعها سوى مدن صغيرة كسلوري وسواها ولكنها لم تنزل عن كونها البقية الباقية من امبراطورية رومية العظيمة ولا تزال نادي العلوم والفنون الغربية ومركز الكنيسة الشرقية فمحاولة ضبطها يعتبر تعرضاً ظاهراً وعداوة بينة للعالم المسيحي

وقد كان موقع المدينة علَى غاية من المناعة الطبيعية ومجهزاً بكل وسائط الدفاع المستعملة آنئذٍ مما يجعل الامال ضعيفة بفتحها كما ان كثيرين من الابطال رجعوا عنها بخفي حنين

هذا عدا عن ان الاميراور خان من الاسرة المالكة وحفيد سليمان الچلبي كان رهناً عند الامبراطور فلو تُرك حبله علَى غاربه وعاد الى اية بقعةٍ من بلاد الدولة لاخذت الثورة بالظهور

اعد ذلك خليل باشا في عداد ما اعده من العراقيل والعثرات في سبيل الفاتح وجعله سلاحاً قاطعاً يستعمله

ضده عند مسيس الحاجة

واتفق ان الامبراطور اوفد سفيراً الى العاصمة يطالب بتخصيصات للامير المرهون وتجاوز هذا السفير حدود الرسميات وآداب اللياقة بان تهدد الحكومة العثمانية باطلاق سراح الامير وفك عقاله ان لم تجبه الى طلبه فوجد الفاتح في ذلك مجالاً للعمل فسيحاً وذريعةً مناسبة للقضاء عَلَى سياسة الروم الخرقاء واخذ يعن الفكر وينعم النظر في الطرق المؤدية الى ذلك

يروى التاريخ ان الفاتح دعا وزيره خليل باشا سحراً فاضطرب الوزير لهذا الطلب الفجائي وحسب له الف حساب واستصحب معه كمية وافرة من الذهب ليرفعها الى الملك ويستبقي بها حياته

ولاحظ السلطان عَلَى وزيره هذا الاضطراب فباداه بقوله وزيري : لا اطلب منك مالاً ولا منالاً ولست اريد بك سوءًا . بل اودّ منك ان تكون لي عوناً فيما انويه من فتح القسطنطينية . ان هذه الامنية

هي شغلي الشاغل والمحور الذي تدور عليه آمالي . انظر هذه الوسادة انها توعكت من كثرة ما تقلبت عليها ذات اليمين وذات الشمال ولم يجد الكرى الى جفناي سبيلاً . انا لا يهدأُ لي بال ولا يقر لي قرار الا متى تم عَلَى يدي هذا الفتح العظيم وتسنى لي هذا العمل المجيد

اما الوزير فلما اعتقد بان ما انتقده عَلَى السلطان كان وهماً باطلاً وانهُ لم يبطن له شراً سرى عنه وانبسطت نفسه ووعده وعداً اكيداً بالمعاونة وانتهت هذه المفاوضة الليلية بأمر السلطان القائل بصوت جهوري « اياك ثم اياك ان تنخدع باموال الروم »

واخذ الفاتح يعد ما استطاع من قوةٍ ورباط الخيل ونزل الى الساحل ينشد مركزاً موافقاً يؤمن معه خط حركة جنود الاناضول فوجد محل حصار الروملي الان مطابقاً لاميالهِ عَلَى انه قبل البدأ ببناء القلعة كتب الى امبراطور القسطنطينية يستأذنه بذلك لسابق عهد بينهما لانهُ لا يشأ ان ينقض مبرماً او يخفر ذمة فاجابه الامبراطور

بان ذلك المحل للجنويين فالسؤال يجب ان يكون منهم وكان الجواب ذا شأن والامر ذا بال مما دعا السلطان الى القول « ليس بيني وبين الجنويين عهد فلا اسألهم عليه امراً » وباشر بناء القلعة

علم الامبراطور بذلك واوجس خيفة من هذه المظاهرات العدائية التي تعززت باعلامات خليل باشا السرية واخذ يحاول اقناع السلطان وارجاعه عن عزمه بدفع الجزية ويرسل السفير تلو السفير للوصول الى حل مرض فلم يخرج جواب الفاتح عن حد البيانات الآتية :

«لا اخال ان من يحرس ملكه بعين لا تنام يعد ناكثاً لعهده هل نسيتم الخطر العظيم الذي احدق بوالدي عندما اتفق امبراطوركم مع المجريين على منعه من الدخول الى بلاد الروم (الروملي) كنت اذ ذاك شاباً في ادرنه ورايت المسلمين ينتفضون خوفاً ويرتعشون رعباً ورهبة وكنتم انتم تهزؤون بهم وتسخرون منهم

بتلك الأزمة الشديدة اقسم والدي بأنه سيشيد هنا حصناً حصيناً وانا ابرّ بيمينه اليوم واحيي آماله · بلغوا مليككم ان سلطان اليوم (يعني نفسه) ليس كاسلافه فانا في وادٍ وهم في واد · ان آمال اجدادي لم تصل الى مرامي اعمالي والآن اذهبوا بسلام ولكن اذكروا ان من يعود بمثل هذه السفارة فأني اعامله بالجزاء الاوفى »

عَلَى هذه الصورة خرج الوفد يتعثر باذياله ولم يعبأ الفاتح باقوال خليل باشا الذي كان يحاول ثنى عزيمته وتثبيط همته بعبارات ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب وثابر عَلَى عمله بهمة لا تعرف الملل

رسم الفاتح بنفسه مصوّر القلعة وجعل ابراجها الاربعة عَلَى اشكال حروف اسم « محمد » تبركاً وتفاءلاً واشتغل ببنائها ما يربو عن خمسة عشر الف عامل كما اشترك به الامراء والوزراء انفسهم نسجاً عَلَى منوال السلطان الذى اراهم المثل الاعَلَى في سبيل الوطنية فبلغ البنيان تمامه باقرب وقت

وما غرب عن فكر السلطان ان هذا العمل لا بد وان يستلزم اهتمام الروم ويكون من ورائه امتشاق الحسام فقرر الحيطة والتدبر لئلا يسقط في يده وتذهب اعماله ادراج الرياح واستكشف المدينة ابان ايابه الى ادرنه واخذ مصورها بيده وبدأ بالتاهب لحصارها

وبينما هو يجهد فكره ويشحذ قريحته شام برقاً من نور افكاره واختراعاته التي افادت العالم المتمدن وعادت عليه بعوائد الخير والنجاح واخذ باصلاح الآلة النارية التي نشأت اذ ذاك في اوربا وبقي فعلها محدوداً كالمترليوز الان (١)

افرغ الفاتح كنانة جهده في ذلك واستخدم معه المهندس مصلح الدين وصاريجه سكبان واوربان المجرى فاستحالت الى مدفع هائلٍ يزن ثلاثمائة قنطار من النحاس ويقذف قذيفته الرخامية التي لا تقل عن

---

(١) كان عمل هذه الآلة محدوداً عند تاليف السيرة اما الان فهي آلة هائلة تبيد الالوف من البشر باسرع من لمح البصر «المعرب»

اثنى عشر قنطار الى ما بعد ميل واحد

وعلى اثر اتمام المعدات الحربية تعرض بعض الاروام لمحافظي الحصار العثمانيين بداعي شجار قام بينهما على بقعة ارض مما اعتده الفاتح نكثاً للعهد وبدأ باجراء منوياته من جهة القسطنطينية فارسل جيشاً كافياً الى المورة تحت قيادة طرخان بك ليشاغل اخا الامبراطور المتولي اعمال حكومة اليونان ويمنعه عن امداد اخيه بالمال والرجال وتوجه هو بذاته على القسطنطينية في اوائل الربيع من سنة ٨٥٧ هجرية .

كان عدد الجيش العثماني يربو عن مايتي الف جندي وعدده ١٣٠ مدفعاً منها ثلاثة كبار يتولج خدمة اكبرها ٤٠٠ جندي ويجره ماية رأس بقر ويعتني بتمهيد السبل التي يمر منها مائتان وخمسون جندياً على ما يرويه التاريخ ولذلك لم يتسن للجيش الوصول الى اسوار القسطنطينية الا بعد مسيرة شهرين كاملين

وفي غضون الحركات العسكرية هجم قرهجه بك

من الامراء العثمانيين على البلاد الباقية تحت حكم الامبراطور حتى تعداها الى اياستفانوس ودوخها جمعاء (خلاسلورى وبوغادوس)

يرى الناظر الان الى اطلال القسطنطينية ويستدل منها على انها كانت محاطة بسور واحد من جهة البحر والخليج (القرن الذهبي) وباسوار وخنادق مزدوجة بعمق ماية قدم وحصون منيعة من جهة البر وبالاجمال فقد كانت المدينة مثلثة الاضلاع « سراي بروني، ديوانسراى ، يدي قله » وكلها مجهزة بوسائط الدفاع

اخذ الجيش العثماني بحصار المدينة فعسكرت ميمنته التي تضم ماية الف من المشاة امام يدى قوله وميسرته التي تجمع خمسين الفاً ازاء باب البلاط وزغنوس باشا مع شرذمة قليلة في جهات غلطه والسلطان نفسه خيم مع حاشيته التي لا تقل عن خمسة عشر الف انكشاري في قلب الجيش

اما في البحر فقد رست ثماني عشرة سفينة وزهاء اربعمائة مركب لتشديد النكير وجلب الميرة والذخيرة وكانت حامية القلعة تزيد عن ثلاثين الف شاكي السلاح من الاهلين والغرباء

بدأ الحصار واخذت نار الجيش العثماني تتطاير عَلَى هام القلعة والعدو لا يتمكن من مقابلته لان الحواجز المنيعة والسراديب الحربية التي رتبها الفاتح جعلت جيشه في مأمن من الخطر

ولما ضاق العدو ذرعاً هجم هجمة المستميت عَلَى خارج القلعة وظن ان هذه الجرأة تفيده شيئاً مذكوراً ولم يدر في خلده ان الجنود المحمدية لا تهاب الموت ولا تخشى الصدام فهي تسعى الى احدى الحسنيين الشهادة او الظهور فلما تناطحا مرة او مرتين تاكد العدو بخلالها ان امامه جيشاً لا يشق غباره ولا تفل سيوفه عاد الى مركزه بصفقة الخاسر

وكانت الجهة البحرية من المدينة محاطة بحائط

بسيط لا يعسر اجتيازه لولا ان مدخل الخليج كان مسدوداً سداً محكماً بزنجير يتعذر كسره و يصعب قطعه وكذلك جهتا لانغا بوستان وقادرغا فانهما كانتا مرفئين محصنين بخنادق ومعاقل عديدة مما يجعل الجهة البرية اقرب منالاً واسهل تناولاً الى الحركات الحربية فنقل الفاتح المدافع الثلاث المذكورة الى ما يقابل اكرى قابو وما لبث ان حولها الى طوب قابو لان الامبراطور حصن جهات اكري قابو تحصيناً عارض حركات الفاتح ووقف في سبيل اطلاق مدافعه

من الامور المقررة ان كل اختراع حديث العهد لا بد ان تشوبه شائبة النقص ثم يتحسن بالتدريج شيئاً فشيئاً تبعاً لسنة الارتقاء . كذلك كانت حال المدافع المستعملة في الجيش العثماني فان حشو المدفع الكبير واطلاقه كانت تستغرق زهاء ساعتين من الوقت وعليه كان لا يمكن استعماله اكثر من سبع او ثماني مرات باليوم وليس هنالك واسطة لتبريد غليله وتسكين حرارته فانفجر مرة

وتمزق شذر مذر

اتى هذا الحادث الجلل علَى السلطان في ابان الشدة وزمن الضيق فما ثبط عزيمته بل ارشده الى استعمال زيت الزيتون بالمدفعين الاخرين لحفظهما من خطر الانفجار وافلح في مسعاه

ومع كل ذلك لم يشأ ان يعقد النية ويعتقد النجاح بشيء لم يثبته الاختبار بعد فرای من باب الفراسة والتعقل استجلاب كمية كافية من آلات المنجنيق واقامة اربعة حصون متحركة تسير علَى عجلات وتجهيزها بجنود مسلحة بالنبال والبنادق وزجاجات ملأى بعقاقير تستحيل ناراً محرقة عَلَى اثر سقوطها (١) وامر بارسالها الى القلعة. وكذلك امر بترتيب سيارة اخرى تسمى باليونانية ما يقارب معنى « فاتحة الامصار » وهذه ايضاً لها عدة عجلات ملفوفة بثلاث لفائف من الجلد

(١) لعلها الدبابة النارية التي استعملها العرب بحروبهم «المعرب»

لتبقى دائماً رطبة ويقيها من عتاب الحريق ومسقوفة بسقف حصين لوقاية من فيها ولها في اسفلها اربعة ابواب وهي ملأى بالحطب واشباهه لردم الخنادق ونقل بعض الجسور السفرية لاجل اقامتها واجتياز الخنادق عليهـا

وقد اتت هذه القلعة السيارة في احدى الليالي بخدمة جلّى بان هدمت احد الابراج التي بجهة طوب قابو ولكن ما لبث عشية او ضحاها الا واعاده الروم الى ما كان عليه بسهر الامبراطور المتواصل وغيرة عماله تحت جنح الليل وانتقموا من السيارة شر انتقام بان جعلوها طعاماً للنار من كثرة ما صبوه عليها من زيوت النفط

لم يتمالك الفاتح من اظهار اعجابه الشديد واستحسانه الزائد لما رآه من سهر عدوه وتفانيه بالدفاع لانهُ كان من عشاق الفضيلة ومقدري الاعمال المجيدة ولو اتت من يد اعدائه وكانت موجهة ضده

وبينـا كانت حلقات الحصار آخذة بالتحكم ظهر

في البحر مقدار خمس عشرة سفينة ارسلت للاخذ بناصر
الروم وامداد القسطنطينية وظلت شهراً في عرض البحر
تترقب من الريح المضادة مجرى . فقام لمقابلتها ماية
وخمسين سفينة بين كبرى وصغرى من الاسطول
العثماني ونزل السلطان بذاته ليرى ما يتم عليه الامر
بين الاسطولين

كانت سفن العدو كبيرة جداً ومجهزة بالمدافع
الكافية وربانها ونوتيتها على خبرة تامة بالفنون الحربية
بعكس العثمانيين الذين ما اعاروا البحرية جانب
الاهتمام قبل الفاتح بل قُبيل التشبث بفتح القسطنطينية
وكان امير البحر بالطه اوغلى عديم الكفاءة قليل
الاختبار فجاء انشاء الجواري العثمانية ناقصاً وقوة سيرها
ضعيفة ولم يكن لديها مدافع كافية ونوتية تعودت الاقامة
بين السماء والماء

ابتدأت الحرب البحرية واخذت قذائف العدو
تغشى اديم الماء لا سيما زيوت النفط التي كانت تجري

وهي شاعلة فكان مشهداً هائلاً جمع بين النقيضين وساوى بين الضدين (النار والماء)

امام هذا المنظر المهيب وقف الاسطول العثماني لا يبدي حراكاً وقد تحركت اخيراً منه سفينتان بفعل الامواج فاصطدمتا معاً واحترقتا بتاتاً

لا تسل عن الفاتح وشدة انفعاله من بطأة اسطوله وعدم تمكنه من اسطول العدو الذي لا يعادل عشر ما عنده وعدّ ذلك عاراً كبيراً عليه وعلى جنده الذي اذلّ به كل اوروبا واندفع بجواده الى البحر لا يلوي على شيء فاخذت الحمية رجال الاسطول وتحركوا بعد السكون وهجموا هجمة عنيفة صارت بها الحرب سجالاً تتراوح بين كثرة عديد السفن العثمانية وتفاني نوتيتها وبين دربة العدو وحنكته الى ان هبّت ريح موافقة للعدو فمرت سفائنه بسرعة ودخلت المرفأ لأن الاروام كانوا ارخوا طرفي الزنجير من غلطه وسراي بروني

ولما بدأت هذه المقدمات اخذ خليل باشا يقنع

الفاتح ويستميله لقبول الصلح زاعماً انهُ لا يستبعد ان ترد
النجدات الى القسطنطينية وتزيد الحال اشكالاً وقد كاد
يفلح لولا سابق ظن السلطان به في سلطنته الاولى ومعرفته
حقيقة امره وسوء طواياه فكان يقتصر عَلَى استشارة زغنوش
باشا وآق شمس الدين والمنلا كوراني ومن شاكلهم من
الاجلاء والفضلاء ويعوّل عليهم في المهمات ويرجع
اليهم في المعضلات

ثبت الفاتح عَلَى مبدأه من حيث مواصلة الحرب بيدانه
كان يقدر حرج الموقف ووعورة المسلك ويتطير من
حرق السيارة ومقاومة حصون القسطنطينية لمدافعه
الضخمة وعدم مقابلة اسطوله اسطول عدوه

شأن العاجز في الشدة اليأس والقنوط والقادر الثبات
والمثابرة عَلَى العمل . كذلك كان شان الفاتح في اعماله فإنهُ
لما قطع خيط الامل من قطع زنجير الخليج واعتقد ان
محاولته المحال لا تجدي نفعاً ولا تغني فتيلاً قدح زناد فكره
واستضاء بنبراس علمه وقرر امراً لا يخطر عَلَى قلب بشر

وذالك فتح طريق برية من طولمه باغجه الى قاسم باشا تسير عليها السفن ورسم مصورها بيده وامر بوضع سبعين سفينة عليها و بعد ان فتحت اشرعتها اجتمع كل موجود في غلطة من انسان وحيوان واشتغلوا بجر هاته السفن وتسييرها في الليل حتى اذا ما انبلج فرق الصباح كانت جميعها راسية في الخليج

رأى العدو سفن العثمانيين ولم يكن يتوقع تلك الرؤية وظن انه في حلم وهو معذور في ظنه لان هذا العمل العظيم الذي ناب به السهل والجبل مناب البحر وسارت به المراكب في طريق يصعب سلوكه على المركبات لا شك معجزة من المعجزات الباهرات وخارقة من خوارق العادات

و بعد ان خفت وطأة الدهش والحيرة التي استولت على العدو من جرأ ذالك قام يحاول احراق السفن العثمانية واغراقها عبثًا لان السلطان كان على بينة من نوايا عدوه و يقظًا على اسطوله

ولم يكتف الفاتح بذلك بل اخذ بانشاء جسر من جهة غلطة الى الضفة المقابلة على ظهور قصع مرتبطة بعضها كترتيب الجسور التي تقام الآن على الزوارق وصارت تمر عليه الجنود والمدافع

فخشي العدو العقبى وحاول حرق الاسطول مرة اخرى كان نصيبه بها ما كان قبلاً من الفشل وما انتفع من ذلك سوى انه بهـذا العمل ايضاً استدعى انتباه السلطان وحذره

ولما رأى الروم ما حاق بهم قرروا سراً مناوشة الاسطول والجسر على امل ان يسوءهما بسوء بواسطة السفن الراسية داخل الزنجير والموكول اليها امر حمايته وكانت لا تقل عن خمسة وعشرين قطعة

علم السلطان بذلك فعزم على مبادأتهم والكيل بكيلهم ليخلو له الجو ويزيح من وجهه هذه العقبة الكأداء على ان النقطة الحاكمة على هذه السفن هي مركز جيش زغنوس باشا الذي كان مخيماً في محل بك اوغلي (بيريا)

الآن فالقذائف التي ترسل من هنالك لا بد ان تعوج على حصون الجنويين الكائنة في غلطة والجنويون في ذمة السلطان وعهده فاصبح من الصعب درأ الخطر عن اسطولنا بواسطة القلاع البرية

اطرق الفاتح ملياً فتراآى له استعمال مدافع ترمي قذائف عوجاء ظن انها تصل الى هدفها بسهولة بدون ان تمس ما بطريقها واطلق اول قذيفة منها بذاته فاصابت المرمى واغرقت سفينة من سفن الروم

ان هذا الاختراع العظيم التي سمحت به تلك القريحة الوقادة لغاية حفظ الاسطول والجسر كان اساً لاصول قنبلة اليوم واصلاً لفروع مدفعيتها الراقية

وبينما كان الفاتح في هذه الحركات البحرية كانت قواه البرية قد قضت على اربعة ابراج من القلعة وجعلتها دكاً وملاءت نصف الخندق تقريباً على انها لم تنل وطراً من السور لانه كان منيعاً جداً ولم تكن القذائف لتبدد شمله بل كانت تخترقه وتفتح فيه الثغور فقط فأراد

السلطان تعجيل الفتح وصوب قوة مدافعه الصغيرة على حائط وسط بين طوب قابو وادرنه قابو واخذت هاته المدافع تصب عليه القذائف بضع ايام متتابعات حتى تضعضعت قواه وتداعت قوائمه فاشار الفاتح حينئذٍ باستعمال المدافع الكبيرة فلم تكد ترمي هذه بقذائفها الا واخذت تتساقط على الحائط كأنها قطع صخرية انفصلت عن مراكزها بفعل بركاني وقضت عليه القضاء الاخير وكان يوماً عصيباً صمت به الآذان من هزيم المدافع وانهيال البناء وتناثر الاحجار

ولما توسم الفاتح النجاح بعد ذلك ارسل يطالب الامبراطور بتسليم القلعة بدون حرب حفظاً للدماء من الاهراق والنفوس من الازهاق فلم يجبه الى طلبه السلمي فاضطر غير باغ للمثابرة على الفتح وما افلح بيومه رغم ما اوتيه في امسه وكان يخشى من العدو ان يسد الثغرة التي فتحتها مدافعه فداوم الحرب طول تلك الليلة الليلاء على نار المشاعل ونور الشموع التي ارتفعت على اسنة الرماح

وكأن تلك الاضواء التي كانت ترسل خطوطها الشعاعية الى الفضأ مظاهر زينة زاهرة لمهرجان الغد العظيم ومقدمات نتائج باهرة لذلك الفتح المبين

ولما بدّدت طلائع الصباح جيوش الظلام تأبط الفاتح سيفه وتوسط جنده كعادته واخذ يبث فيهم روح الحماس ويقوي نفوسهم بنير النيران امامهم والذهب عن ايمانهم وشمائلهم وافتتح كتاب الهجوم بيده ولم تدم هذه الصولة الاسدية الا ساعات قلائل اتت الجنود العثمانية بخلالها من ضروب الشجاعة وصنوف الشهامة ما يدك الرواسي ويبهر العقول وقد ملئت الخنادق بجثث القتلى منهم حتى فتحت القلعة والجنود تمر عَلَى ربوات من الهامات

اما غلطة التي كانت بيد الجنويين وسيلوريه و بوغادوس الباقيتين للروم فقد سلمها اهلوها ودخلو بامان السلطان عَلَى اثر الفتح

وضعت الحرب اوزارها وقتل قسطنطين الملك

مع من قتل ودخل الفاتح القسطنطينية بجحفل حافل وحل في القصر الملكي حيث اسكي سراي الان وكان عَلَى غاية من الضخامة والفخامة والرواء والبهاء فلما رأى السلطان ما انتاب هذا القصر وساكنيه اعتبر بتصاريف الزمن وجرى المقادير ولم يتمالك نفسه عن البكاء واخذ يردد بيت شعر بالفارسية مضمونه « ان البوم يتغنى اليوم عَلَى حصن افراسياب والعنكبوت ينسج الستائر لقصر قيصر »

هذه رواية التاريخ عن الفاتح العظيم وهي اعدل شاهد واظهر برهان ينطقان بزهده وتقشفه عن الدنيا وخشوعه وخضوعه الى خالقه الكريم

اقام الفاتح في استانبول زهاءً عشرين يوماً قام فيها بتدابير سياسية عظيمة كهدم اسوار غلطة من جهة البر وترميم حصون استانبول ونقل خمسة الاف عائلة من ساحل البحر الاسود الى المدينة ليزيد عمرانها وحضارتها وما نسي واجب العدل والرحمة باعلان الحرية المذهبية واحترام الطقوس الدينية باستبقاء بطركية الفنار وفك

عقال الاسرى من سراة البلاد ودفع فكاكهم من بيت المال

والغريب ان هاته الاعمال التي جاءت غرة في جبين المكارم وقرة لعيون الكماليات لم ترضِ فريقاً من عمال السلطان المغالين في تعصبهم والمفرطين بسياستهم بل انتقدوها عليه زاعمين انه لم يبق ثمة مانع من تخيير الروم بين السيف والاسلام وان من الخرق في الرأي ترك رجال الحكومة السابقة احراراً لان ذلك يعقبه انتقاض عن ايدي هوءلاء المضلين

سمع الفاتح هذا التعريض واجاب عن الاول بجواب كان فصل الخطاب اذ قال « ان محاولة حماية الدين المبين اكثر من شارعه العظيم صلى الله عليه وسلم يعد مروقاً عن الصدد وزيغاً من الحق » واما الثاني فقد اثبت الاختبار صحته لان وجهاء الروم عقدوا اتفاقاً تحت رعاية نوتارون من وزراء قسطنطين الامبراطور وقرروا استجثاث مسيحي اوروبا واثارة خواطرهم ضد

العثمانيين وكانت مقابلتهم هذه سيئة كبيرة وذلة لا تغتفر في جنب عفو السلطان عنهم وانعطافه عليهم ولذلك القوا ما جنت ايديهم وذهبوا للنطع ضحية نكرانهم الجميل

وقد ادى سقوط امبراطورية القسطنطينية تلك السقطة الهائلة التي رنّ صداها في مشارق الارض ومغاربها وسارت بذكرها الركبان الى زعزعة اركان حكومة المورة التي كانت بيد اخي الامبراطور فحمل عليها الالبانيين وتوسل الاهلون بالفاتح الذي كان يتوقع بنافد الصبر مثل هذه الفرصة لكي يوسع حدوده في الروملي ويضرب بعرضها فامدهم بطرخان بك نائبه في منع اليونانيين عن امداد القسطنطينية إبان حصارها وطرد هذا القائد الالبانيين من شبه جزيرة المورة ودخلت تحت سلطان الدولة العثمانية عَلَى ان تحفظ لنفسها اميرها واستقلالها الداخلي وتدفع الجزية

ومما يذكر للفاتح فيشكر فتحه جهات اينوس وطاشوس وسمندرك لان اهليها الذين لم يدخلوا في

كنف السلطان عاثوا في الارض فساداً وعبثوا بجيرانهم المسلمين مما دعا قاضي فراجك الى رفع الشكوى عن اعمالهم البربرية فسافر الفاتح بنفسه وقضى عَلَى هــذه المغارم والمظالم ومكّن عروة حدوده الطبيعية

ومن بعد هذا كله اخذت مقدمات حرب السرب بالظهور ولا يخفى ان هذا الجهاد الشريف كان درة في تاج اعمال الفاتح وبيت قصيد افعاله الكبرى وذلك ان وجه القرابة الموجودة بين آل عثمان وعائلة الملك في سربيا تخول العثمانيين الجلوس عَلَى منصّات احكامها وفقاً للقواعد المالوفة اذ ذاك وقد راى الفاتح انه امن الغوائل فاوفد الى غوركي المكنى بالتواريخ العثمانية ب (ويليق اوغلي) سفيراً بمهلة خمسة وعشرين يوماً طالباً منه التنازل عن تلك البلاد او بالحري عن ذلك التراث المأكول

فلم يرجع السفير في خلال الاجل المضروب وغوركي نفسه ذهب الى بلاد المجر يستجيرها ويستفزها فقام الفاتح باسرع من لمح البصر وقصد صوفيه ليعرقل

مساعي عدوّه وهناك علم ان المجريين قطعوا نهر الدانوب من جهة طرنوى فترك جيشه وتوجه ومعه عشرون الف فارس الى سربيا

ومن حسن الحظ ان المجريين اخذتهم صيحة السلطان فصعقوا وانقلبوا الى اهلهم والسربيون رجعوا ادراجهم الى الحصون والمعاقل فلم يجد السلطان في كلتا طريقيه منازعاً ينفث في وجهه سمه واخذته سورة الانفعال فبعث فريقاً من جيشه عَلَى سمندره واوستريجا وقضى عَلَى اسوار الاولى الخارجية وافتتح الثانية بعد حصار عنيف دام اياماً قليلة وافلت الفرسان في عرض البيدا فاسروا خمسين الفاً ولما بدأت طلائع موسم الشتاء عاد الفاتح الى ادرنه وترك فيروز بك من امرائه مع ٣٢ الف جندي عَلَى حصار موراويا

علم بذلك جان هونياد القائد المجري الشهير فتحين فرصة رجوع الفاتح وهجم عَلَى جيش فيروز بك مبادرة وفرقه ايدي سبا وخرّب مايلي ويدين حتى

انهُ لم يسع الفاتح عند سماع هذا الخبر الا السفر غير مبالٍ باختلاف الطقس وصبارة القر وما كاد يصل الى صوفيه الا وسلم له ملك السرب عَلَى ان يدفع الجزية عن يد وهو صاغر لعلمه انه ومعاونيه المجريين لا يتمكنون من الوقوف امام العثمانيين فلم يبق ثم حاجة لحرب او خصام

ثم توفي الملك المشار اليه بعد مضي وقت قليل فانفتح له باب ثاني لطلب الميراث وجدد الفاتح تجريدته عَلَى الشمال عن طريق اسكوب وحاصر نواوره فما قاومت معداته التي اتمها في معامله قبلاً وسلمت بعد اسبوع فقط كما سلمت له تريجا وطاش حصار وتوجه الى سلانيك ثوًا اما سبب ذهابه الى سلانيك فهو مراقبة اعمال اسطوله وحث رجاله عَلَى الثبات في مواقف الدفاع وعلة تمرين الاسطول هي اصلاح الحالة المختلة في الارخبيل حيث ان زعيم الشفاليه القائم في رودوس تمرد عن اداء الجزية قبل سفر سربيا و بعض اهل الجزر تمنعوا عن دفع مطاليب العثمانيين وتعرضوا للسفن التي تخفق عليها

رايتهم وهاته الاحوال على بساطتها لها عند الفاتح شأنٌ مذكورٌ فهو يعتبر اثارة الحرب اهون من شق عصا طاعته و يعد مساس حق فرد من رعاياه بمثابة الاستيلاء على كل مملكته . هذا ما دعاه الى الاهتمام بحالة الجزر وارسال اسطول ضخم لا يقل عن ماية وخمسين سفينة

على ان الاسطول لم يكن في الحال المنظمة التي تمكنه من القيام باعمال خطيرة تقضي ابانة السلطان من ضبط الجزر عن بكرة ابيها فاكتفى باطلاق ايدي الغارة في ربوعها واستعمال بعض الضغط مع اهاليها . وكان موسم الربيع قد اقبل واخذت الارض زخرفها وازّينت فقام لاكمال سفر سربيا واستصحب جيشاً عرمرماً يبلغ الماية وخمسين الفاً ومائة مدفع اعدها حديثاً وتوجه الى بلغراد واقام في الدانوب اسطولاً صغيراً ليعترض المجريين عند امدادهم السربيين

وجمع جان هونياد جنود المجر وامده البابا بستين الفاً اجتمعت تحت لوائه واشترك معهم اسطول لا يقل

عنماية سفينة والتقى الجمعان في ضواحي القلعة وغلب الاسطول العثماني مرة لقلة عدده وعدده ونقص خبرة رجاله ومع كل ذلك فقد اقتصر العدو الذي تراخت اعصابه وخارت قواه على مناوشة الجنود العثمانية من وراء حجاب اي انه رجع الى حصونه ومعاقله وبداء بالدفاع

وما لبثت المدافع العثمانية ان دمرت بعض انحاء السور القائم حول القلعة وهجم العثمانيون هجمة عنيفة استولوا بها على بعض ارجائها

غلب العدو على امره ولم يبق لجان هونياد سيف القوس منزع وبينما هو يتأهب للقفول بصفقة الخاسر اذ قام الراهب يوان كايسترتومن المتطوعة مفضلاً النار عن العار والموت الشريف على الحياة الذليلة وجمع ثلة من ابطال قومه حملوا على الجنود العثمانية حملة منكرة من جانب القلعة الاخر فوقفت جنودنا وقفة المريب وظنوا ان هناك خدعة حربية وشركاً منصوباً لان

الحماس الذي اظهره العدو بهذه الاونة بعد ذلك العجز في النضال والفتور في الذب عن القلعة ضد ان لا يجتمعان وفضلوا الرجوع ولكن لا تسل كيف رجعوا انهم كانوا كلهيب النار التي تحاول ان تدلع لسانها الى امامها فتعاكسها الريح وتردها أصرا

ورأى هونياد ما حل بالعثمانيين وقد ساورهم الفشل فاسترجع رشده وجمع جنده واعاد عليهم الكرة وما كان هؤلاء يتوقعونها فازاحهم من مكانهم

نظر الفاتح الى هذا الامر نظرة المتحير وناهيك بسلطان يعتقد بان جيشه لا تفل سيوفه في الحروب البرية خاصة وقد غُلب لقاً عدو لا يعتد به بل هو بالنسبة اليه كالصيد تجاه الصياد الماهر فاضطرب الفاتح وقطرت شفتاه دماً من عظيم انفعاله كانهُ اسد اصيب بجراح بالغة وما تمالك ان القى بنفسه في معترك الهيجا بدون ان يلبس درعه عزلاً من كل سلاح ما عدا سيفه وخلواً من النصير خلا رباطة قلبه

وكان سوء الحظ قد دفع ضابطاً من المتدرعة للوقوف امامه فخفر سيف الفاتح ذمة مغفره ووصلت شفاره الدقيقة الغرار الى حلقومه وسار في صولته حتى اذا بلغ النقطة التي حمي بها وطيس الحرب وغلت مراجل النزال واخذ بشجع جنده بحماسي المقال واراءة المثال فعادت لهم روح الشجاعة وقد اوشكوا على النصر لولا ان اختل نظامهم ونقطعت اوصالهم بوفاة قراجه باشا امير امـراء الروملي وزعيم الانكشارية بين الواحد تلو الآخر

ولو وقفت المصيبة عند هذا الحد لكانت تحتمل التحمل ولكنهـا تحدت الى ابلغ منهُ فجرح السلطان في فخذه جرحاً بليغاً وسقط عن جواده صريعاً واصبح الجيش كجسم خامدٍ انفصلت عنهُ روحه

ومما يسطره التاريخ بالفخر لرجال البلاط المـلوكي التفافهم حول سلطانهم كانهم سورٌ من حديد اوسوارٌ في معصم وثباتهم فـي النضال عن مولاهم وحفظهُ من العدوّ

ولم يدخر الامراء وسيلة في منع هزيمة الجنود وتهدئة روعهم ولكنهم كانوا كالصارخ في الواد الى ان اراد الله بعباده خيراً واعاد للفاتح قواه وقام يتلمس تلمساً والالآم تشاغله والاوجاع تناوبه وما كف عن القيادة بل جمع خمسة او ستة الآف من فرسانه وحال بين الاعداء وبين ما يشتهون واخذت الجنود ترجع بانتظام

زعم بعض مورخي الافرنج ان العدو استولى في هذه المرة عَلَى كل مدافع الجيش العثماني والحقيقة خلاف ذلك فان التواريخ العثمانية ما ذكرت من هذا شيئاً ولا عرضت به اثناء الحديث مما يدلنا عَلَى ان هذه الرواية مختلقة فضلاً عن ان الفاتح كان لا يتمكن من الوقوف في وجه عدوه وهو جيش عرمرم خاض غمار الحروب و تخضب بالدماء برأسه قرم عنيد كجان هونياد بعد اضطراب حبل جيشه او صح ان المدافع ضبطت منه ما لنا وذلك ولنرجع الى الفاتح فانه لما راى صعوبة

العمل واخفاق المسعى اشفق عَلَى النفوس البشرية التي خلقها الله في احسن تقويم وقرّر اقامة استحكامات في المراكز الضرورية ليسقط اهمية بغراد الحربية ويوشحها بنطاق من الجند العثماني ويأمن بذلك غائلة المجريين الذين يأوون اليها المرة بعد الاخرى ويقفون في سبيله

وارسل عيسى بك نجل حسن بك والي ويدين لشن الغارة عَلَى بلاد المجر نفسها فرجع ابناؤها الى بلادهم ليحموا حماها وعَلَى هذا الوجه افلح الفاتح في تطهير البلاد منهم وعاد الى ادرنه وباشر باقامة الافراح لختان صغار الامراء مظهراً عدم اكتراثه من رجعته الى بلغراد الذي كان يعتبرها قضاءً الهياً وقدراً مقدوراً والغريب ان خوف الاعداء من رجوع السلطان غير ظافر كان اشد وقعاً واعظم تاثيراً من شهرة انتصاراته السالفة لان البابا كان ارسل عشر سفن وبعض قرصان البحر المسيحيين اربعين سفينة للعبث بالامن في الارخبيل وحث اهل الجزر عَلَى الانتقاض وكادت ان تقوم قيامتهم لولا رجوع

الفاتح عن حصار بلغراد . فسقط في يدهم وذهبت ريحهم واوفدوا السفراء خاصة يطلبون تجديد الصلح بشروط مهينة لهم وفوق ذلك فان حاكم البغدان التي هي اقرب البلاد للمجر بادر الى اعطاء الجزية واثبت انه يقدر الفاتح حق قدره ويخشى بأسه . وبعد انقضاء الافراح والولائم اخذ السلطان يستعد لاعادة الكرّة على سربيا تشفياً وبينا هو في ذلك جاء للديوان رجلٌ بصفة مدع قائلاً : « اني تاجر رحالة اتنقل في بلاد الموره وقد راعني ما رايته من مظالم حكومتها وجورها علينا نحن المسلمين فكل الاحزاب التي تتولى زمام الاحكام هناك تجعل ديدنها الحيف بنا والخسف علينا ارضاءً للراي العام والعنصر الغالب فاطلب الى السلطان بالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن مواطني وبينهم الايامى واليتامى ان يرمقنا بنظرة حنان ويحمي ذمارنا »

اصاخ الفاتح لهذه الشكوى المره وكانت تعلو وجهه امائر الانفعال وعلائم الحزن حتى انه لم

يتمالك عن التململ والبكاء طويلاً وامر في نفس الجلسة باعلان الحرب عَلَى الموره ولم يخش شدة الامطار المتواصلة والانواء المتتابعة في موسم الشتاء وبارح استانبول قاصداً الجزر وفوق ذلك ما اهمل مسئلة سربيا او امهلها بل بل بقي مصراً عَلَى فكره ثابتاً في عزمه بشانها وجند جيشاً كبيراً تحت قيادة وزيره الاعظم محمود باشا للقيام بتلك المهمة التي سلبت راحته وشغلت باله منذ ازمان

اشتغل الفاتح زهاء ستة شهور بالحصار واستولى عَلَى اهم القلاع وعاد الى اسكوب حيث يقضي ايام الزمهرير بها وهناك وافاه وزيره محمود باشا الذي ناب منابه وسد غيبته في جهات سربيا وضبط كل القلاع التي يرمي اليها ما عدا سمندره وارسل رواده ومستكشفيه الى بلاد المجر ليحتلوها

وقد انتشرت اخبار هذا النجاح ودارت عَلَى الالسن والشفاه فاضطر المجريون المتحالفون مع السرب والمجبورون للوفاء بعهدهم عَلَى التزام السكينة والاقتصار

عَلَى ارسال بعض روّادهم

وعلم حاكم بوسنه بنية السلطان من جهة سمندره واعتقد انه مغلوب لا محالة فسلم مقاليد القلعة عن رضاء نفس وطيبة خاطر وكفى نفسه وبلاده مؤونة الحرب وعناء الكفاح ثم انتقض الجنويون وقاموا يطالبون بغلطـه وقد سبق لنا البيان بانها سلمت عَلَى اثر فتح القسطنطينية ولجأت الى كنف الدولة العادل فرأى الفاتح في ثنيات هذا الطلب تعرضاً ظاهراً وعملاً مهيناً له فرده رداً جميلاً

اما الجنويون فانهم اشهروا الحرب وارسلوا اسطولهم من اماصره ليناوىء السفن العثمانية الراسية في البحر الاسود فاضطر الفاتح للتفرغ الى هذا العمل وعقد هدنة مع اسكندر بك الذي ظهر واستفحل امره في البانيا الى اجل محدود واياماً معدودات · وزحف تواً عَلَى الساحل وما كان يصل الى اماصره الا وقد سلمت له رهبة من جيشه واسطوله قبل ان يصليها ناراً حاميـة

و يجعلها قاعاً صفصفاً

هذا من جهةٍ اما من الثانية فان محمود باشا اختلس فرصة وجوده في جهات الاناضول وعرّض بلزوم اختبار ولاء اسماعيل بك الاسفند ياري حاكم قسطموني وسينوب او بالحري مناصبته العداء ولا ندري اذا كان هذا العمل هو خدمة خالصة لوجه السلطان وخير البلاد من الوزيراو تودداً وتزلفاً الى صديقه قزل احمد اخي اسماعيل المذكور ولما كان السلطان يودّ من كل فوأده استئصال جرثومة ملوك الطوائف وقطع دابرهم من شبه جزيره الاناضول والروملي تقبل هذا الطلب قبولاً حسناً واحله محل الاعتبار وكان اسماعيل بك رجلاً بعيد النظر دقيق الفكر فلم تغرب عنه نوايا السلطان وآمال محمود باشا من حيث مودته لاخيه قزل احمد وزاده احترازاً وخشية كتمان امر هذه التجريدة وتحصّن بادىء بدء في سينوب ولكنه لم يطل جفاؤه و يقال على عدائه لما راى الاسطول والجنود قد حاقت به من

كل صوب وحدب وبادر لتسليم القلعة ليثبت ولائه قولاً وفعلاً

قابل الفاتح جنوح اسماعيل بك الى السلم بالاستحسان وكاد ان يبقي عَلَى حكومته لولا اضطراره الى رفعها من طريق دولته جراً لمغنم ودفعاً لمغرم فدعاه الى ديوانه وحاسنه بلطيف الرقة ورقيق اللطف واقطعه مقاطعة يكى شهر التي هي اعظم موارداً واعذب مناهلاً من ايالة الاسفنديارى وعاد بعد تجشمه مشاق السفر مدة شهر او شهرين غانماً ظافراً لانه امن شر عدو قوي في سواحل البحر الاسود وقضى عَلَى طائفـة من ملوك الطوائف

وبينما كان النجاح يكلل آمال الفاتح في الغرب ويطير اسمه في كل قطر ومصر كانت يد الزمان تهيء له عدواً عنيداً في الشرق هو اوزون حسن (حسن الطويل) زعيم عشيرة آق قيونلىلر « ذوي الاغنام البيضاء » ومن ابطال قومه الاشداء

ظهر هذا المدعى في البلاد الكرديه وعاث هو واخوته فساداً في الارض وقد تزوج من ابنة امبراطور طرابزون ولا يخفى ان هذه الامبراطورية هي من بقايا اثار حكومة القسطنطينية وقد دخلت في كنف الدولة العثمانية عَلَى ايام السلطان محمد جلبي واصبحت تدفع لها خراجاً معيناً فقام حسن الطويل يحاول حمايةحميه وقطع الخراج عنه عند ما كان الفاتح في تجريدة اماصره وتعدى هذا الزعيم عَلَى حسين بك الضابط العثماني القائم في قيونلي حصار واحتل حصنه وارسل الفاتح حينئذ سرية من جنود الرومللي تحت قيادة حمزه بك لتعاقب المذكور عَلَى عمله الشائن وفعله المعيب ولم يرفق القائد فبعث الزعيم بعض رواده لداخلية البلاد ليكتشفوها .

هذا ما دعا الفاتح الى حل عقدة ذوي الاغنام البيضاً كما انهى غائلة الاسفنديار يين وتوجه بذاته عَلَى البلاد الكردية

علم حسن الطويل وفرة الجنود العثمانية ومكانتها الحربية من اخبار مستطلعيه ومن الصدام الذي حصل

بين طلائع جيشه وجيش احمد باشا كدك في جرخة
وبقي يتردد برهة بين عاملين قويين غرور يدفعه
وتدبير يمنعه حتى غلب الثاني عَلَى الاول وانسحب حسن
بجماعته الى اعالي الجبال واوفد امه السيدة ساره والشيخ
حسين حاكم جمشكزك ليفاوضا السلطان في امر الصلح

وكان الفاتح قبل وصول الرسولين اليه استرجع
قيونلي حصار وتخطاها الى الامام فصادفاه في عرض
الطريق واخذت ام حسن تستعمل دهاءها المفرط
وانضم اليها محمود باشا بشفاعته فحوّل السلطان عزمه عن
حسن ليظهر للناس انه اجل من ان يسترسل في الطغيان
واعظم من ان يملّك زمامه للحقد والضغينة وبدأ يعامل
ام حسن معاملة الولد البار . عَلَى انه لم يطاوعها بالرجوع
عن ما قرره بشأن حكومة طرابزون لانهُ كان يرمي الى
تحكيم نفوذه عَلَى شواطىء البحر الاسود فضلاً عن ان
بقاؤها عَلَى سابق عهدها يجعلها مبأة للروم في شرورهم
فاراد نضب مياه هذه الاضطرابات المنتظرة ومـا زال

سفيرا حسن الطويل في معية السلطان يسعيان لتحويل عزمه ويعملان على ارجاعه عن قصده ولم يتركا وسيلة والا وطرقاها فلم يفلحا

ومن جملة ما قالته سارة للسلطان عند ما رأته قد ترجل في طريق وعر ومشى على قدميه برهة غير يسيرة « مولاي ! هل يعادل ضبط حصنٍ كل هذا العناء ؟ فاجابها « ياأماه لم يكن غرضي ضبط الحصن بل القيام بواجبي وواجب سيف الشريعة الذي قلدني اياه ربي » وقد قطعت جهيزة قول كل خطيب فلم تحر سارة جواباً .

وبالرغم عن كل المصاعب التي وجدها الجيش في سبيله فانه قد اقتحمها ووصل طرابزون باسرع ما يمكن وسلمت القلعة بعد حصار قليل وارسل امبراطورها الى الاذرنه بكل حفاوة واحترام

ولما استقر الحال بالسلطان واصبحت كل سواحل البحر الاسود الجنوبية في قبضة تصرفه وجه همه الى ابادة

الطاغية العظيم ولار زعيم الافلاق وكان يعرف بين العثمانيين باسم ذي الاوتاد وعند المجريين بالشيطان ولدى رعاياه الافلاقيين بالجلاد وناهيك بها من اوصاف شنعاً تدل عَلَى الموصوف واسماً تنبئ عن المسمى فكان في عداد الفتاكين الذين اضطهدوا الانسانية واشربوا في قلوبهم الظلم وقتلوا النفوس البريئة باقامتها عَلَى الاوتاد وغليها في المراجل

احرز هذا البغيّ مقامه بحماية السلطان ولكن غلبت عليه الوحشة والدناءة فقابل الحسنة بالسيئة وعامل السفيرين المرسلين اليه من جانب السلطان بالقتل والصلب لانهما رفضا الدخول عليه حاسري الرؤوس حفظاً للشعائر الاسلامية ولذلك امر بالتمثيل بهما تمثيلاً بربرياً كدق عمامتيهما عَلَى رأسيهما بالمسامير وصلبهما عَلَى الاوتاد واجتاز هو والرعاع التي تفيأت بظله نهر الدانوب ودخل بلغاريا ففتك باهلها فتكاً ذريعاً دونه الطاعون ودمرها تدميراً لا تقدر عليه الزلازل

والاعصار

وقام الفاتح لمقاومة عدوه الالدّ فارسل الجيش مع محمود باشا وركب هو الاسطول ليختبر نفسه لاول مرة في الاسفار البحرية ومن غرائب الاتفاق ان هذه الحرب البحرية كانت اول ما نجح بها العثمانيون كأنها تيمنت بمقدم السلطان

سافر السلطان الى مايلي ودين وبدّد القلاع الكائنة عَلَى ضفتي الدانوب شذر ومذر واجتمع بجيشه واخذ يقتص اثر العدو ويتبع خطواته

وكان ولار عَلَى شدة ظلمه وغشومه يعرف الخدع الحربية حق المعرفة فتوغل وجماعته في الحراج وكمنوا يتوقعون بالعثمانيين شراً

وفي احدى الليالي التي حلك بها الظلام وساد فيها السكون هجم عَلَى الجيش العثماني وكاد ان يصل الى فسطاط السلطان ويصيبهُ بسوء لولا ان جنودنا التي كانت تعلم اوروبا وآسيا معنى الجندية وتتلو عَلَى العالم

المتمدن دروس الوطنية قاومتهُ اشد مقاومة وتأثرتهُ ميمنة الجيش حتى احرجته عَلَى الخروج من حدود الافلاق خاسراً وقد توفق بدهائه من الهزيمة ونجا بنفسه لائذاً الى بلاد المجر

وكان السلطان يقدر حاجيات مملكته فلم يرد ان يزيد عليها بلاداً خارجة عن تخومها الطبيعية فتكرم بالافلاق عَلَى رادول اخا ولار المذكور ولما رأى ان الجو خلاله وما بقي امامه رقيب ينازعهُ عزم عَلَى ضبط جزيرة ليمنوس لانها عَلَى مقربة من بلاده وما فتئ قرصانها يتعرضون للسواحل مرة بعد اخرى فخطط الخطط الحربية وسلمها للصدر الاعظم محمود باشا وارسله اميراً عَلَى الاسطول وعاد السلطان الى استانبول وما لبث الصدر ان ضبط الجزيرة بوجه سلمي

لم يكن من داب الفاتح التخلي عن اسفاره الحربية ولكنه رجع هذه المرة حباً بتنسيق البحرية واكمال نواقصها حفظاً للراية العثمانية فيما عسى يحدث بينه وبين

جمهورية البندقية ولاحظ الاشغال بذاته ومن جملة ما قام به استحكامات سد البحر وچناق قلعة (الدردنيل) علَى ضفتي البحر المتوسط وما زال فن الحرب الان يعتدّ بها و يعدها بمكانة قصوى من الاهمية مما يشهد للفاتح بسمو المدارك وكبر العقل في الفنون الحربية ايضاً

كنا المعنا قبلاً ان السلطان لم يوفق اثناء حصار القسطنطينية بتصويب مراميه من جهات قاسم باشا الى الجهة المقابلة وانه اضطر لتسيير السفن علَى وجـه الارض من بشكطاش الى القرن الذهبي وتكلف ذلك التكلف الهائل الذي ازهق الارواح رغبة في الوصول الى امنيته اما هذه المرة فقد نجح نجاحاً مبيناً بانشاء مدافع تقذف القذائف من الجانبين الى مركز وسط وتسقط علَى هدفها بسهولة

فرغ الفاتح من هذا العمل الهامّ وما كاد يأخذ لنفسه طرفاً من الراحة الا وقام ملك البوسنه يعارض بدفع الخراج المقرّر عليه زاعماً ان قلعة سمندره التي

سلمها عن طيبة خاطر تقوم مقام الخراج وكانت بوسنة حداً طبيعياً لبلاد الروملي وضبطها ضرورياً لحياة المملكة العثمانية وقد سنحت هذه الفرصة الثمينة التي لا يجوز فواتها فجند السلطان جيشاً كبيراً يحوي مائة وخمسين الفاً وقاده بذاته

وصل الفاتح اسكوب وعلم بها ان ملك البوسنه تحصن في احدى القلاع فارسل محمود باشا في الطليعة وتولى هو الجيش الاحتياطي يقوم باوده بسرعة خارقة ومهارة فائقة فلم تمضِ بضع اسابيع حتى سطى عَلَى ملك بوسنيا باسره واسرَ ملكها وما وقف عند ذلك بل ارسل الصدر بجيشه الى الهرسك ينشد طريقاً ومخرجا بحرياً ونجح الصدر في مهمته الثانية

وبعد كل هذا اشهرت حكومة البندقية الحرب عَلَى الدولة عَلَى اثر ظهور حادث بسيط بين امراء الحدود بسبب اسير فرّ من عند والي اثينا واستأمن بنبيل بندقي وقد عارض النبيل في اعادته وتسليمه اشد المعارضة

حتى افضى الى ذلك التخاصم والبندقية في ذلك الزمان كانكلترا اليوم من حيث انتظامها وانكباب اهلها عَلَى الجد والعمل في التجارة والاسفار عَلَى قلة نفوسها وقد اصبحت خزانة اوروبا ومالكة زمام البحر المتوسط بل ملكة البحار على الاطلاق

دام هذا الجدال العنيف زمناً يربو عن ثلاثة عشر عاماً اثبت الفاتح في خلالها عظيم دربته ودرايته وخرج منها متوج الرأس ظافراً اما زعيم البندقية فقد كان عَلَى خبرة تامة بدخائل السياسة عارفاً باساليبها ودسائسها وكان يأمل ان يحرّك ساكن البلاد المفتوحة في الدولة ويثير ثائرها فضلاً عن انه يثق بمساعدة البابا بيوس الثاني الذي كان عَلَى جانب عظيم من التعصب الديني وكان يتوقع معاونته بتاليف فئة صليبية كبيرة يسترجع فيها فائت قوته الروحية والزمنية ويستعيد بها الاستئثار بالسلطنين

وفعلاً ظهرت مقدمات هذه الظنون واخذت

البلاد تنتقض الواحدة بعد الاخرى بمجرد ما تهيأ اسطول البندقية وغدت تنتشر جنوده كالجراد وكان اليونان في مقدمة رافعي لواء العصيان ثم اسكندر بك الالباني

والبابا نفسه جند فرقة عظيمة من اهالي حكومتي فرنسا والمجر ومدن ايطاليا وقادها بذاته وحضر الى انقونه ليتسنى له الهجوم على البلاد العثمانية ثم بتلك البرهة توفي ابرهيم بك القرماني حافظاً عدائه للدولة وهو على شفا جرف القبر وعهد بالولاية لابنه الصغير اسحق بك الذي ولد من جاريته رغماً عن وجود ستة انجال له من زوجته عمة السلطان وكان هذا الولد يحذو حذو ابيه فانحاز الى حسن الطويل الذي لا يترك فرصة الا وينتهزها ضد الدولة وطرد اخوته من عنده واتفق مع من اتفق من الاوروبيين على مناصبة الدولة العداء وقد بلغت القحة والوقاحة من بعض الدول المجاورة للدولة العثمانية مبلغاً جسيماً ومنها من لم يصبها خيرها او شرها ولم يصلها الا اسمها بان اصبحت عدوة

لمودة ومناهضة قوية شديدة واجمعوا امرهم عليها فاضحت المملكة كبيت احاطت به النيران من كل جانب

اعتاد الفاتح خوض المنايا فما اعجزه التدبير لقاء هذه المصاعب والمتاعب وصار يعمل عَلَى حفظ كيانه واسترجاع مكانته برباطة جأشٍ وعزم لا يتزعزع

اقام هو في استانبول يدير دفة الامور وعهد بقيادة الجيش الاول الى بير احمد بك ابن عمته والى حمزه بك والي انطاليه والثاني الى طرخان زاده واورنوس زاده والى والثالث الى شرمت بك وبلبان بك «الذي نصب علم النصر عَلَى برج القسطنطينية وهو جندي بسيط فكافأه السلطان عَلَى هذه الخدمة ورقى به حتى القيادة» وارسل هذه الجيوش بعد ان زودها بالخطط والتعاليم الحربية عَلَى صاحب قرمان والموره واسكندر بك الالباني كل بمفرده

واسعفت العناية الالهية الفاتح بوفاة البابا فانتثر بعدها عقد الصليبين وتشتت شملهم فكانت اعظم مساعد

انجاحه وفلاحه

ولما راى حسن الطويل تدابير الفاتح فضل الانسحاب بعد ان نهب البلاد التي تعهد بحمايتها وصيانتها ورجع غانماً سالماً فسقط في يد اسحق بك واخذ قسطه من الجيوش العثمانية وهناك عادت تخوم البلاد الى ما كانت عليه في عهد بيازيد ووقعة تيمورلنك اما في شبه جزيرة الموره فلم تقم الجنود مدة قليلة الا وعادت السكينة الى مجراها واستتب الامن . وهذا النجاح وان قضى عَلَى بعض قوى التحالف الموجهة ضد الدولة الا انه ما اعاد المياه الى مجاريها لان البندقيين انشأوا قلعة عظيمة في مضيق الموره وجهزوها بمايتي مدفع وجعلوا البلاد تحت خطر الضبط وبقيت الجنود العثمانية محصورة في ما وراء المضيق كما ان جيش المجر الذي تركه البابا المتوفى ميراثاً هجم عَلَى البوسنه وضبط يايجا

لما تأكد السلطان مرامى اعدائه ومواضع آمالهم قام لاستئصال شأفتهم وقطع دابرهم بجيش جرار وبارح

القسطنطينية وكان للجيش العثماني ذلك الصيت الطائر والصوت المرعب فما كاد يأتي عَلَى مقربة من مضيق الموره وترى جنود العدو طليعة الجيش التي تولاها محمود باشا مقبلة حتى ولت الادبار خوفاً وجزعاً دون ان تطلق رصاصة واحدة

بُشر الفاتح بهذا النصر العاجل فشكر الله سبحانه وتعالى عَلَى نعمائه والآئه ووجه وجهه شطر البوسنه ومعه ثلاثون الف جندي ليس الا وبلغها بسرعة غريبة وبدأ بحصار يايبجا وبينما هو مشتغل بالحصار اجتاز المجريون الحدود وهجموا عَلَى قلعة ازورنيخ لكي يحولوا الجيش العثماني عن محاصرة يايبجا وعاد محمود باشا بعد ان اعاد الامن في الموره وقاوم اسطول البندقية الذى كان يرمي الى ضبط مدللي « متلين » فارجعه ادراجه بحملة واحدة

هنالك انسحب الفاتح الى صوفيه واتخذها وازعاً لحركاته وقسم جيشه الى شطرين ارسل اولهما الى يايبجا

ليشدد حلقات الحصار عليها وثانيهما الاجر ليقاوم عساكره وعهد بالاول الى محمد بك منت وبالثاني الى محمود باشا

ومن غرائب الصدف ان شأن قلعة ازورنيح كان كشأن قلعة المضيق فان ملك المجر بمجرد ما راى طليعة الجيش التي يتولاها الصدر اخذ بالتقهقر تاركاً ميرته ومدافعه وقد تبعته الجنود العثمانية حتى حدود بلاده وابلت بجنده بلاءً حسناً سواءٌ في الطريق او في مرورهم من نهر صاوا ورسخت قدم الدولة في السيادة عَلَى البوسنه

اما في جهة البانيا فقد قلب النصر للعثمانيين ظهر المجن وذهبت ريح فرقهم التي يقودها شرمت بك لقاء اول حملة من اسكندر . واما بلبان بك فانه باقتدائه باوامر الفاتح واهتدائه بهديه نابذ الاعداء وقاومهم قليلاً الا انه كان يربح مرة ويخسر مرتين فكان الفشل اليفه طول هذه الحرب

عَلم الفاتح بذلك واعتقد ان شجاعاً مثل اسكندر

لا يقف في وجهه الاشجاع مثله فبعد انهاء واقعة المجر توجه تلقاءه ودوخ بلاده من ادناها الى اقصاها واحاط بالجه حصار مركز حكومته واخذ بخناقها

وقف اسكندر ازاء مهارة الفاتح وكفاءة مدافعه ففضل التسلق الى الجبال عن النزول الى ساحة النزال او الالتياذ باحدى الحصون

ثم بداء بمناوشة الجنود العثمانية فما كاد يفتر ليلة واحدة عن شن الغارة عليها ويعود بخسران بعد ان يكون قضى العدد العديد من الفريقين ولما طال ذيل هذه الحملة وعزم سيلها وحل موسم الشتاء ترك الفاتح فريقاً من جنده تحت قيادة بلبان بك وتحرك هو على جهات مكدونيا وضبط ما تيسر ضبطه من البلاد التي كانت في عرض طريقه ووصل الى ادرنه

اما اسكندر بك فمذ علم برجوع الفاتح حمل على بلبان بك حملة منكرة قضى بها ذلك القائد العظيم شهيد وطنيته واضطرب حبل جيشه ودمر اسكندر

ايلبصان التي شادها الفاتح في تجريدته عَلَى البانيا مما اضطر الفاتح لمتابعة الحرب فأعاد حملته عليها في اوائل الربيع

وكان اسكندر بك قد قضى نحبه فنجح الفاتح في تسخير تلك الانحاء بدون كبير عناء

سبق لنا البيان ان اسحق بك القرماني تحالف هو وحسن الطويل والبندقيين واتفقوا عَلَى معاداة الدولة العثمانية وانهم لاقوا من الفاتح ما اعادهم القهقرى اما الان فان بير احمد ابن عمة السلطان الذي تربى في حجره اتبع خطوات اخيه اسحق الشيطانية وانضوى تحت لواء حسن المذكور تحت امل اضعاف قوة الدولة وايقاعها في احبولة ثانية كالتي وقعت عن يد تيمورلنك وبالتالي الاستئثار بسلطة الاستقلال في برّ الاناضول واصبح يعمل معهما ويدلهما عَلَى مواضع الخلل ومواطن الضعف حتى اذا انتهى الفاتح من وقائع الروملي وجه همة نحو الاناضول لازالة هذه العقبة الكؤود ورفع هذا العدو الداخلي وتوجه بذاته

وما عتمَّ ان استولى عَلَى قونية واتخذها مركزاً لحركاتــه وجنَّد منها الجنود تحت قيادة محمود باشا وبعد حروب عنيفة عديدة دخلت كل تلك البلاد تحت ظل الدولة الظليل

اما في الجهة الثانية فان جمهور البندقيه اقتصر عَلَى مناوأة العثمانيين بطرق القرصانية لانه لم يتوفق لعقد اتفاق صليبي ثانٍ ومع ذلك فقد ارسل اسطولاً ضخماً توصل به الى نهب بعض الجزر العثمانية ومدينة اينوس ابان وجود الفاتح بجهة قرمان فرأى الفاتح ضرورة القضاء عَلَى جزيرة اغريبوز لانها الفرضه الوحيدة التي يلجاء اليها اسطول العدو في الموره وجنَّد عليها جيشاً من جهة البر وارسل اسطولاً تحت امرة محمود باشا

وقابل البندقيون هذا العمل بالمثل فارسلوا اميرهم باسطول لا يقل عن ثمانين سفينة ليمدوا القلعة وينجدوها ولكنهُ وقف بمكانه لا يقدر عَلَى شيء لما لقيه من مكنة الاسطول العثماني وانتظامه بعد ذلك الوهن الذي كان به ابان حصار القسطنطينية حتى انهُ لم يستطع منع

بضع سفائن من الدخول الى الخليج واقام الفاتح جسراً متيناً بين البر والجزيرة وضبط القلعة لرابع مرة من هجمات جنوده البواسل

واثناء الاشتغال بهذا الفتح انتقض القرمانيون مرة اخرى ودفعوا البلاد الى الفوضى مما بعث بالسلطان الى اشهار الاحكام العرفية بينهم واقصاء بعض زعمائهم وايوائهم باماكن بعيدة حباً باخلاد الاهالي الى السكينة ودرأ الاخطار التي تنجم عادة عن مثل ذلك وارسل محمد باشا روم ثم اسحق باشا واحمد باشا كدك بالنظر لما اتى به الاول من ضروب الاعتساف وصنوف الجور وما اعترضه من عدم النجاح الذي هو نتيجة طبيعية لظلمه وطغيانه

وبينما كان احمد باشا كدك يعنى بقمع الثورة وتثبيت دعائم الامن والنظام قام حسن الطويل يحاول الهجوم على البلاد العثمانية «وفي كل واد اثر من ثعلبه»

اشتغل هذا الزعيم بعد انعقاد الصلح بينه وبين

الفاتح بالتفرد بين ظهرانيه وضمن بلاد اجداده وقضى عَلَى جهانشاه ملك ذوي الاغنام السوداء وعَلَى ابي سعيد ميرزا حفيد تيمورلنك بعد حروب دموية طاحنة ونبذ حسين بايقرا من خراسان نبذ النواة وملك اعنة البلاد الكائنة عَلَى حدود الدولة العثمانية حتى نهر جيحون طولاً وعرضاً والاماكن الواقعة بين بحر الخزر الى السند فكان مثال تيمورلنك او تمثاله الحيوي

قلنا ان حسن الطويل اتبع خطوات تيمورلنك واتخذها نموذجاً في حركاته وسكناته وقد دمرّ توقاد وتوجه بجيشه من قيصرية عَلَى بلاد قرمان لحماية اصحابها فضلاً عن انهُ كان يرمي بكل اوضاعه واطواره الى الغض من كرامة السلطان ويتعمد اهانته كمخاطبته بلقب بك وايصائه بالدعاء لدولته وغير ذلك من اشكال الازدراء ولم يسع الفاتح عند سماع هذا الخبر الا القفوز عَلَى جهات الاناضول كالباز الصيود وكاد يتوغل في داخليتها لولا ان وزيره محمود باشا الذي تربع في دست الوزارة للمرة الثانية

استوقفه بداعي حلول فصل الشتاء لانه يحول دون الحركات الحربية هـذا من جهة اما من الثانية فان التحقيق اسفر عن ان قوى العدو قليلة وهي لا تستدعي مزيد اهتمام ولا تستلزم سفر السلطان بذاته فاكتفى الفاتح بارسال سرية عهد بقيادتها الى الامير مصطفى وداود باشا امير امراء الاناضول وقد قامت هذه السرية بما انيط بها خير قيام فوقف حسن الطويل عند حد محدود

ولما اقبل فصل الربيع قام السلطان عَلَى مايَة وثمانين الف مقاتل يطلب حسن الطويل في الجهة الشرقيـة بعد ان اخبره عن عزمه بكتاب ملوء بالتهديد والوعيد ولكنه خلوٌ من كل مفاخرة حسبما كانت عليه عادة تلك الايام الخالية • اخبره ليكون عَلَى بينـة من الامر ويستعد لمقابلته ومقاتلته وفي ذلك مـا فيه من المروءة وكرم الاخلاق • اما حسن الطويل فانه لجأ الى سفوح جبال الضفة المقابلة من نهر الفرات يتربص ورود الفاتح وكان

في طليعة الجيش خاص مراد من مقربي الفاتح فلمـــا دنا من معسكر العدو لم يتمالك ان حاول عبور نهر الفرات وكانت هذه الحركة محفوفة بالخطر فارسل السلطان محمود باشا لكي يلاحظه ويثنيه عن عزمه ولكنه كان كنافخ في رماد لان الاول كان متشبثاً في رأيه ومعتمداً علَى شجاعته علَى قلة اختباره وحنكته فاجتـــاز النهر هو وجيشه

وقد جاءت هذه مرافقة لاميال حسن الطويل لانها شعبة من الخطأ وضرب من الخطل واخذ يستعمل الخدع الحربية بان تظاهر بالرجوع الى الوراء وكمن في الطريق حتى وقع الجيش في الشراك المنصوبة له واستشهد قائده

راى حسن الطويل هذا النجاح وظن ان السطوة العثمانية قد اضمحلت وقوتها قد تلاشت فصار يخيل له الوهم الاستيلاء علَى القسطنطينية بل علَى المغرب الاقصى وبينما هو في احلامه هذه اذ وافاه الفاتح وقد وصل الى صحراء ترجان برهة اسبوع وهو يتقد حنقاً وغيظاً

ولما التقى الجمعان ولى الفاتح قيادة ميمنة الجيش الى الامير بايزيد والميسرة الى الامير مصطفى وتولى هو قلب الجيش بذاته ولم تمض ساعتين او ثلاث حمى فيها وطيس الحرب الا ونجحت ميمنته ثم ميسرته بتفريق كتائب العدو وقتل قائد ميسرة العدو زينل بن حسن الطويل فشكر الفاتح المولى عَلَى ما اتاه من النصر العزيز والفتح المبين عَلَى رجل طاغية تفرد بسلطته واشمخر بانفه واعتق رقاب الاسرى الموجودة عنده وقد كانوا اربعين الفاً او يزيدون واعاد اليهم حريتهم المسلوبة وحقهم الضائع هذه كمالات لا تصلح الا للفاتح ولا يصلح الا لها

وقد اراد السلطان ان يقتفي اثر حسن الطويل ويستأصل جذوره ولكن وزيره الاكبر محمود باشا اقنعه بالعدول عن هذا العزم بقوله ان العدو قد كسر شر كسرة لا يرجى له بعدها قومة وانه لا بد من مصادفة عقبات وحواجز طالما هو متحصن بالجبال الجرداء وان الاهلين من ابناء ديننا المسلمين فلا يجيز السلطان

شن الغارة عليهم الى غير ذلك من الملاحظات التي استحسنها الفاتح وعمل بها

وقد عاد الفاتح الى عاصمة السلطنة بعد ان استولى عَلَى شبين قره حصـار و بعض القلاع في تلك الديار ابان رجوعه واقام فيها

وفي طيات تلك الاقامه توفق احمد باشا كدك والوالي الامير مصطفى الى تسكين ثورة الاناضول التي ازكى نارها القرمانيون بالاتفاق مع جمهور البندقية واصبحت قرمان كلها للعثمانيين بلا منـازع ولا معارض

وفي مدة تلك الاقامة ايضـاً ارسل رواداً عَلَى الجرمانيين الذين لم يدخلوا في حوزته واقام هولاء في قلعة عَلَى نهر صاوا يشنون الغارة عَلَى جرمانيا والمجر مرة بعد اخرى مدة عشر سنوات ويخربون مـا تصل اليه ايديهم

ومن اعمال تلك الاقامة ايضاً ارسال سليمان باشا

خادم عَلَى اشقودره الواقعة في الحد النهائي من غربي الروملي والتي كانت في يد البندقيين اذ ذاك وابحار احمد باشا كذلك في اسطول ضخم عَلَى قريم لضبط سواحل البحر الاسود الشمالية وقد سبق ضبط السواحل الجنوبية منه وذلك ليتخذه ميناء امينًا ووازعًا مهمًا لاسطوله

وقد افتتح المشار اليه مباشرة كفه وسواحل ازاق التابعتان للجنويين في مدة قصيرة واستمال خانات القريم بقايا الحكومة الجنكيزية الشهيرة وعقد عليهم لواء الولاء ومع تلك الشهامة والعزم ووصول طلائع جيشه الى جهات راغوزه لم ينجح في فتح اشقودره وبينما هم في ذلك اذ قام آتين متولي اعمال حكومة البغدان بعد وفاة حاكمها السابق يحاول عَلَى دفع الخراج السنوي المقرر عليه فامر الفاتح سليمان باشا بالكف عن اشقودره والتوجه عَلَى البغدان وقد سافر بقلب ملؤه الاقدام وعبر نهر الدانوب عَلَى الجلد الا انه لم تتساوى عنده كفتا الغيرة

والمهارة وبدا في الحرب بمكان لا يوافقها فغاب عَلَى امره

وعَلَى اثر هذا الانكسار وحاول موسم الربيع عقد السلطان النية عَلَى السفر الى الشمال فقام سفيرا البغدان وبولونيا التي كانت تابعة لها اذ ذاك يحاولان ارضاء السلطان واقناعه بصور شتى · لكنهما لم يفلحا في سعيهما لان الفاتح كان يطلب اعطاوءه جميع سواحل البحر الاسود ويلح عَلَى دفع الخراج المعين وقد انكر البغدانيون ذلك واستكبروه ايما استكبار فاضطر الفاتح الى متابعة الحرب .

دخلت العساكر العثمانية بلاد بغدان وقد اصبحت قاعاً صفصفاً لان آتين خرّب البيوت بايديه وحرق كل القرى والبساكر وسحب الاهلين الى مواقع الخفاء فلا زاد ولا مكان يصلح للسكنى ولولا ان السلطان تحوط لنفسه كجاري عادته وحضرت الذخائر التي اوصى عليها بطريق الدانوب لقضى العثمانيون جوعاً عن بكرة ابيهم .

واستمر الفاتح علَى عزمه ولم يعبأ بهذه المصاعب المهمة فبعث طليعة الجيش تطلب العدوّ فضلّت في الطريق وسلكت مسلكاً وعراً . ومن غرائب الاتفاق ان ذلك الطريق ادى بهم الى الحرج الذي لجأ اليه البغدانيون وشعر السلطان بذلك فتبع جيشه وقام آتين لمقاتلته واخذت مدافعه التي تربو عن الثلاثماية تصلي العثمانيين ناراً حامية وقد كاد يستولي الرعب والذعر علَى قلوبهم و يرجعوا بصفقة المغبون لولا ان الفاتح بقوة دهائه وشدة ذكائه حول جنده الى ملجأ امين حفظهم فيه من نيران المدافع

علَى ان هذا الامان لم يكن ليشدد عزيمة الجيش وقد دهش من فرط ما عارضه من مظاهر الحرب الهائلة فكان الفاتح يلقي الاوامر والجنود لا تحرُ جواباً ولا تبدي حركة بل تكاد ان لا تتلقاها بالقبول والارتياح

رأى الفاتح جبن جنوده وخوفهم واخذ الغضب

منه كل مأخذ فرماهم بنظر شذرٍ وهو يقول لهم « انا كنت اتوسم فيكم جراءة اكبر من هذه » وجرد حسامه كأنه يريد ان يشق غبار الحرب ويطاحن العدو بنفسه وصال على المدافع صولة الاسد الرئبال فجذب مغناطيس جسارته كثيراً من رجال البلاط الملوكي ثم الانكشارية ثم بقية صفوف الجند وصاروا يسابقون بعضهم بعضاً في حلبة النزال وميدان القراع حتى دخلوا الى الخرج وتلاقوا باعدائهم وحاربوهم بالسلاح الابيض وجهاً لوجه وبالتالي كتب الله لهم النصر عَلى اعدائهم

واثناء رجوعه فهم ان المجر انتهزوا فرصة اشتغاله بالحرب وحاولوا ضبط قلعة سمندره ولكنهم لم يفلحوا فعادوا بعد ان اقاموا ثلاثة قلاع في ما يليها فأمر بهدمها وُجعلت دكاً

واقام الفاتح في العاصمة سنتين كاملتين بدون عناً ولا كفاح وهو في خلالها لا يفتر عن العمل طرفة عين فرمم اسوار استانبول وحاصر اينانجتى فلم يفلح

بفتحها وما زال الاقنجيون(١) لا ينفكون عن اعمال ايدي التخريب في بلاد المجر وجرمانيا

بادر الفاتح بعد مضي هاتين السنتين السلميتين الى تجديد تجريدته عَلَى البندقية وقرر ايفاد اميراً مراء الروملي عَلَى حصار اقجه حصار — مركز حكومة اسكندر بك الالباني حال حياته — واميرامراء البوسنه مع الاقنجية عَلَى راغوزه واحمد باشا كدك عَلَى فتح اشقودره فاستقال الاخير من هذا المنصب لصعوبة الامر وخطورته فسقط من عيني السلطان وآلى عَلَى فتح الحرب بنفسه

ومن حسن الحظ ان ملك صقليه قدر مكانة الفاتح الحربية حق قدرها وعلم علم اليقين ان غضب السلطان يعمل عملاً اشدّ من سخط العالم المسيحي باسره فرأى من الحكمة والتعقل عقد صلح شريف وامضيا بذلك اتفاقاً كان اول ما عاهدت به الدولة العثمانية دولة مسيحية

---

(١) نوع من الجند

وجنح ملك المجر الى السلم ايضاً فاصبح جمهور البندقية عزلاً من كل سلاح و بعيداً عن النصراء والظهراء وقد بلغت الاقنجية الى عاصمته واستولى اليأس والرعب عَلَى بلاده فبعث الى السلطان يطلب الصلح والسلام

قابل السفير السلطان في صحراء صوفيه وعرض عليه شروط الصلح فلم يعبأ بها الفاتح لان راس مطاليبه تسليم اشقودره والبندقية ترى في ذلك مساساً بشرفها فلم تجدِ هذه السفارة نفعاً ولم تغنِ عن الحرب فتيلا

ارسل الفاتح داود باشا عَلَى حصار اشقودره وتوجه هو بذاته عَلَى اقچه حصار وقد كان لها سنة واحدة وهي مثقلة بقيود الحصار فلما راى اهلوها ان القوة العثمانية اصبحت في ازدياد وان فتح المدينة اضحى قاب قوسين او ادنى سلموا ليسلموا من خطر الحروب وويلاتها فأستانف الفاتح سفره الى اشقودره لانه كان يرمي الى ضبط حدود الروملي والتحق بجيشه الذي ارسله امامه لاصلاح الطرق

اذا اعتبرنا ان حصار استانبول كان مبتدىء اختراعات الفاتح في فن المدفعية فان حصار اشقودره كان خبرها وغاية كمالاتها

وقد كانت قلعة اشقودره في ذروة جبل يكتنفها من الغرب بحيرة ومن الجنوب الغربي نهر بويانة الذى ينبع منها وينصب في خليج فينسيا (وانديك) ومن الشمال الشرقي نهر درنه ويتلاقى في النهر الاول عند راس البحيرة ولها غير هذه الاستحكامات الطبيعية ثلاثة حصون تسمى لش ودرغوش وكول باشي (راس البحيرة) فلش علَى ملتقى النهرين ودرغوش مطل عَلَى المدينة وكول باش قائم في ثغر البحيرة · اما جمهور البندقية فقد تدبر الامر واتم نواقص اشقودره وحصنها تحصيناً مهماً ولم يدع فيها رجالاً سوى المحار بين وبعض نساء قليلات كي يتعهدن خدمة الجيش لانه كان يعلم مبلغ نوايا السلطان من فتح اشقودره والضرب في عرض الروملي منذ اول مرة حوصرت بها اشقودره

ولما دنا السلطان من القلعة وجد ان جيش الروملي قد خيم عَلَى ربوة تسمى باشاتبه‌سي (ربوة الباشا) وجيش الاناضول عَلَى نهر درنه فاستحسن موقعيهما حتى انه شبه احدهما بوكن الشواهين

ورأى ان اعمال داود باشا لا تفي بالغرض المطلوب فقسم الجيش الذي اتى به هو الى الجهات الموافقة وقطع خط الاتصال بين قلعة العدو والماء بواسطة السفن التي اقامها هناك وبنى جسراً عَلَى النهر محصناً من طرفيه ليؤمن معه مرور جنده وعبوره وكان الجيش قد تمكن من وضع مدفعين قبالة احد الابراج يرمي الاول قذيفةً تزن اربع قناطير والثاني ثلاثة قناطير وكلاهما لا يرمي اكثر من سبع او ثماني مرات في اليوم · وكانت القلعه محاطة بوعور وهضبات فلم يفلح الفاتح في رفع المدافع التي احضرها معه ووضعها في النقاط الحاكمة ولكنه لم يعدم وسيلة وهو عَلَى ما هو عليه من الذكاء النادر المثال فانشأ في تسعة اماكن تشرف عَلَى القلعة مسابكا

خاصة لسبك المدافع فعملت له هذه المسابك تسعة مدافع من طرازها ون بالعيار الاتي

عدد	وزن القذيفة قنطار
١	٤
٢	٦
١	٦ ونصف
١	٧
١	٩ ونصف
٢	١٢
١	١٣

والمدفع الاخير هو اعظم مدفع ذكرته التواريخ وايم الحق ان هذه الاعمال الهامة والاقدام الغريب لا يتأتى الا لرجلٍ عظيم كالفاتح الذي يشبه الامواج الهائلة التي تلاطم الصخور فتصدها ثم لا تلبث ان تهجم باشد وانكى حتى تصدعها وتزيل ما بطريقها من العقبات

لا بد ان القارىء يذكر معنا ان هذا النوع من المدافع استعملها الفاتح حين حصار استانبول في سبيل القضاء علَى سفن العدو اما هذه المرة فقد استعملها في تدمير القلعة داخلاً وخارجاً

وقد ارتقت صناعة المدفعية مع الفاتح بالاختبار والتجاريب التي عاناها طويلاً في حروبه الماضية فنجحت هذه المرة نجاحاً باهراً وفضلاً عن انها ما تمزقت كما اصاب المدفع الكبير في حصار الاستانة فانها كانت تنطلق بسهولة كل يوم تسعاً وعشرين مرة او اربعة اضعاف ما كانت عليه قبلاً ولذلك فقد اطلق في يوم واحد علَى القلعة من المدفعين القديمين والتسعة الجديدة ماية وثماني وعشرين قذيفه ولم يرو التاريخ لذلك الوقت ان جيشاً بلغ هذا المبلغ من الرقي والسرعة في مدفعيته

وقد استعمل الفاتح هذه المرة الخروق الزيتية او النارية وهي ترمى بسرعة ولها صوت يرن بالفضاء في هدوء الليل ويتكون من اذنابها اشكال نارية تشابه النجوم في

كبد السماء وهذه تحرق كل ما تقع عليه حتى انها لو سقطت في بئر عذبة لاصبح ماؤها اجاجاً ومن هول ما فعلت هذه الخروق اضطر محافظو قلعـة اشقودره لهدم سقوف البيوت القائمة في المدينة

حمل الفاتح عَلَى القلعة حملتين منكرتين دافع فيهما جنود البندقية ومحافظو القلعة من اعوان اسكندر الالباني دفاع الابطال وقد قارب موسم الخريف واصبحت السماء تمطر مدراراً فراى انه يحاول محالا ويطلب عبثاً وفضّل تشديد الحصار واخذ المدينة سلماً لئلا يهدر نفوساً كثيرة ويهرق دماء غزيرة

وعهد بامر الحصار الى عمر بك كما انه انتدب داود باشا امير امراء الروملي بمهمة ضبط القلاع الثلاثة المار ذكرها فافلح الرجل . ثم ارسل علي بك واسكندر بك من ابناء ميخال مع الاقنجية عَلَى البندقية

وبينا كان السلطان متوجهاً الى الحصار اضطر ان يمشي عَلَى قدميه ساعات طويلة في روابي الجبال

لوعورة المسلك فقال لما جلس للراحة هنيهة وقد اخذ منه النصب كل مأخذ » لو كان لنا وزيرٌ قادر لكفانا موءُونة التعب» فاجابه امير الراية هرسك زاده عَلَى الفور لو كان احمد باشا كذلك برفقتكم لكان عناؤكم اقل من ذلك »

نفعت هذه الذكرى الفاتح فتذكر ما لهذا الوزير من الخدمات الصادقة فولاه ولاية سلانيك ثم احاله عَلَى اولونيا وتمكن بواسطته من ضبط بعض الاقسام الباقية من البانيــا

اخذت مستعمرات البندقية في الروملي تنتقل الى الدولة العثمانية الواحدة تلو الاخرى ولم يجد جمهورها موءازراً يشد به ظهره عَلَى مناصبة الدولة العداء لان كل اوروبا كانت تخشى بأس الفاتح وتهاب سطوته وما فتىء الافنجيون يرهقون الاهلين عسراً حتى علا الضجيج وبلغت الروح التراق وقد اتت الافنجية باعمال غريبة في بابها كجر الخيول بواسطة الحبال عن الصخور العالية

التي ترتقي الى مابقي قدم واجتياز المواقع الصعبة المرور كأن روح الفاتح قد دبت في افئدتهم فاصبحوا يمثلونها ويتمثلون بها ولما راى جمهور البندقية ما حل به من الشدة خضع لمطاليب الفاتح بأسرها ووافق عَلَى الصلح بالشروط الاتية «عليه»

اولاً تسليم اشقودره وبقية الاماكن التي لم تضبط في بلاد اليونان واعادة المحلات التي استولى عليها البندقيون ابان الحرب

ثانياً اعطاء ماية الف دينار بمقابل الخمسون الف دينار التي تطلبها الدولة العثمانية بصفة تعويضات تجارية وربط عشرة الاف دينار خراجاً سنوياً عَلَى البندقية

« وله »

اولاً ان يكون للبندقية سفيرٌ في الاستانة يفصل في الدعاوى المختصة برعاياها

ثانياً ان تسهل الحكومة ادخال بضائع البندقية الى كل انحاء البلاد العثمانية

وهنا انتهت الحرب وخرجت البندقية منه مغلوبة بعد ان كانت لا توجس من ذلك لانها . كانت تتوقع فشل العثمانيين واندحارهم بعد حرب عوان دامت ثلاثة عشر عاماً اشتركت بها دول قارتين عظيمتين « آسيا واروبا » ضدها

ولكن ابى الله الا ان يتم نوره واستكانت الروماللي الى العثمانيين

كان دأب الفاتح كلما اتم سفره ووجد مجالاً للعمل اعمل الفكرة في تأمين تخومه الطبيعية وفي مقدمتها الاستيلاء عَلَى سواحل البحر الاسود فارسل سرية بقيادة احمد باشا كدك استولى بها عَلَى قلعة منكوب الكائنة عَلَى ازاق والخاضعة للجنويين . واوفد الامير بايزيد عَلَى قلعة طراول الباقية بيد انصار حسن الطويل وضبطها

ثم علم ان مرعش وتوابعها التي وعدت حكومة مصر بتركها للدولة العثمانية قد اعطيت الى بوداق بك

من ابناء ذي القدرية فبعث عليها فرقة عسكرية وتملكها واقام عليها علاء الدولة من ذات العائلة القدرية عاملاً

وقام اذ ذاك حاكم جزيرتي زانطه وايامورة يحاول دفع الخراج السنوي المقرر عليه الى ولاة يانيه فبعث عليه الفاتح احمد باشا كدك عَلَى اثر رجوعه من البحر الاسود وضبط الوزير الجزيرتين .

وكان هذا الوزير يعلم ان الفاتح الذي قضى عَلَى الحكومة الزمنية في استانبول مركز امبراطورية روما القديمة يود ان يضرب حكومة مدينة رومية الروحانية نفس الضربة القاضية فعاد بعد سفر زانطه الى الاستانة وعرض عَلَى السلطان ان قطعة نابولى في فوضى مستمره وان اقل اهتمام قد يمكنهم من ضبطها فامره السلطان بالسفر عَلَى اسطول ضخم ونزل عَلَى اقرب السواحل الايتالية من الروملي وضبط موقع اوترانتو وتوابعها

اما الفاتح فانه كان مشغولاً باهم من ايتاليا ويرمي الى فتح جزيرة رودوس التي عصت امره وقامت تقاوم

دفع الجزية وكانت الحاجة ماسة لفتحها حفظاً لسواحل الاناضول

وكان السلطان يدرك ان العلم يفضل السيف في تذليل العقبات واذلال الاعداء فكان يحبب الى رعيته فن تخطيط الاراضي وعمل المصورات (الخارطات) قبل التوغل في الحروب والخوض في غمارها كما ان اعداءه انفسهم اضطروا لدراسة هذا الفن ليتمكنوا من مقاومته قليلاً وبالنظر لشيوع ذلك عن السلطان فقد حضر ثلاثة احدهم من اهالي الجزيرة والثاني من اغريبوز والثالث جرماني ممن اعتنقوا الدين الاسلامي ودفعوا الى مسيح باشا امير الاسطول مصورات تمثل استحكامات الجزيرة ولايحة في كيفية الحصار ورفعها هذا الى الفاتح الذي احلها محل الاهتمام وشمل القائمين بعملها بالطافه وبعد ان اعمل قلم التصحيح والنفي والاثبات فيها اعادها الى مسيح باشا لتكون هادياً له في حربه البحرية ونزل الباشا الى رودوس واخذ بترتيب الحصار وقد

وفق لادخال بعض الجنود العثمانية الى قلب الجزيرة غير انه ضلّ سواء السبيل في اذاعة نشرة قبل اوانها ففترت الهمم وثبطت العزائم وكان نتيجتها الحرمان والخذلان . ثم تلقى الجيش الامر بالسفر الى جهات بودروم وهنالك لم ينجح في مهمته ايضاً وفي ابان ذلك اعترى السلطان داء عضالٌ من شدة ما عاناه في سبيل الدفاع عن الوطن وجمع شتاته والسعي اناء الليل واطراف النهار لاعلاء كلمة الحق فهو لم يترك نفساً ونفيساً الا وجاد به او مرتخصاً وغالياً الا وبذله وقد جاءته الاخبار الاخيرة ضغثاً عَلَى اباله وزادت في اشاعتها آلامه ولكنه قام متجلداً وهو يقول « ان جيشي منصور اللواء معزز الجانب ما دمت انا بجانبه » ولم يلتفت الى مرضه وسقمه وانحطاط قواه وسار يطلب ضبط رودس عَلَى ان يجتازها الى برّ الاناضول حيث يكون عَلَى مقربة من مصر التي اصبحت تقلب ظهر المجن وتكشر عن ناب العداء ولكنه مــا وصل الى كور جاير حتى اشتد

به الالم وحال بينه وبين ما يشتهي فظل فيها مدة ايام يتقلب عَلَى فراش الموت حتى فاضت نفسه المطمئنة الى باريها راضية مرضية فانقلب ذلك العرش السامي الذي زلزل اركان العالم واوقع الرعب في قلوب كافة الامم واستهوى افئدة شعبه ومحبتهم المفرطة الى لحد بسيط تعلوه قبضات من التراب

وقد توفي رحمه الله سنة ٨٨٦ وله من العمر ثلاثة وخمسون عاماً قضى احدى وثلاثون منها في السلطنة

ان الذكرى الحسنة والشهرة الطائرة التي اوتيها الفاتح عن جدارة واستحقاق في تلك العصور الخالية عمت المشرقين والمغربين وطرقت آذان العدو قبل الصديق ولذلك لا تجد امة من الامم الا واحلته محل الاحترام وصنفت الكتب العديدة بين روايات ورسائل بتاريخه وترجمة حياته واخلاقه التي كانت نعم المنوال الذي ينسج عليه

ولا بدع في ذلك فان عهد سلطنته كان صحيفة

رقى العثانيين المذهبة وفصل انقلاب عظيم في كتاب الكائنات

ويكفيه فخراً انه حاصر القسطنطينية واستعمل لها الآلات من الطرازين القديم والحديث واتخذ المكر خير رائد ونعم مرشد فسير السفن عَلَى وجه الغبراء بدلاً من اديم الماء ثم قضى عَلَى مملكةٍ حكمت الافاً من السنين واقام مقامها امة جديدة واستبدل مركز ديانة كبرى في مقر خلافة عظمى واختتم القرون الوسطى وادخل العالم في دور جديد

حتى ان الاروام الذين هاجروا الى الغرب بعد ولوج القسطنطينية في حوزة الاسلام اصبحوا اساتذة الاوروبيين الذين اشربوا في قلوبهم حب العلم من اختلاطهم بالاندلسيين قبلاً فزادوهم نوراً عَلَى نورٍ

فالفاتح هو الرجل الفرد الذي يعد صاحباً للقرون الاخيرة وواحدها

ولو امد الله في حياته قليلا وقيض له ان يمد احمد

باشا كذلك في حملته على ايتاليا وتمكن من حفظ البلاد التي دخلت في كنفه من الرجوع الى الاعداء ثانيـة اوفق الى الاستيلاء على رومية العظيمـة مهد العلوم وينبوع المعارف الحديثة في تلك الايام وجعل استانبول عرش التمدن الوحيد الذي يحف حوله العالم الانساني وتتطاول اليه الاعناق

ومما يذكر له انه اعتبر التصور والترتيب في حروبه اصلاً ومشى عليه في كل حركاته فازهرت مساعيه واثمرت هذه الثمرات الدانية القطوف . ومن الموكد ان اول جيش منظم حارب بالاسلحة النارية هو جيش الانكشارية الذي حاصر به اشقودره وعليه يكون الفاتح الاستاذ الاول في فن الحرب الحاضر

اما اختراعاته فقد قطع بها مسافة طويلة وشوطاً بعيداً ودامت القواعد الحربية التي وضع اساساتها معمولاً بها الى ان ارتقت الافكار في اوربا وتغير وجه العلم وتبدل الخبيث بالطيب في خلال القرن الثامن عشر وسرت تلك

الروح التي احيت النفوس وشرحت الصدور الى الجنديه وكان من ورائها التنظيمات الجديدة فكان الجيش العثماني لا يفلّ له سيف ولا ينكص عَلَى عقبة ما دام يقوده قائد مدّرب

والفضل في قيام الدولة عَلَى امتن اساس راجع الى تلك الاختراعات الباهرة والتصورات النافعة التي لولاها لما امكن الدولة ان تحفظ مركزها وتثبت دعائمها امام تلك السيول الجارفة والجيوش الجرارة التي كان يدفعها البابا من جهة وحسن الطويل من اخرى والتي امتزجت معها امم شتى وقبائل عدة في اوروبا وآسيا حتى بلغت امثال العثمانيين مثنى وثلاث ورباع وتولى قياداتها زعماء لا يقلون عن الفاتح دربة وحنكة ولكنه ساد عليهم بشجاعته التي كانت تضرب لها اباط الابل ورايه السديد الذي كان يسبقها

واذا علمت ان سكان البلاد التي استولى عليها الفاتح وبقيت معه في حربٍ سجال اعتادوا خوض المنايا واقتحام الاهوال فاصبحوا رجالاً اشداء الا انهم لم يقووا عَلَى

الوقوف امامه في ميادين الطعن والنزال فكانوا يتسلقون الجبال ويأوون الى الكهوف ويلوذون بالانهار مما جعل كل موقف من مواقفهم حصناً حصيناً وركناً ركيناً يقيهم بأس الفاتح قدّرت ما عاناه من المتاعب والمصاعب وما تجشمه من الاخطار . وهذا ما دعا الفيلسوف الخطير « بل » الافرنسي بأَن يعترف بكتابه مأخذ التواريخ ان الفاتح اعلَى كعباً واعظم قدراً من الاسكندر لان الاخير لم يصادف في طريقه من يماثله او يقاومه ولم يعترض سيرَه معارضٌ

وفي الحقيقة ان القوى التي كان يستند اليها الفاتح هي شعب من اخلاط الامم ودولة صغيرة لم ترسخ قدمها وتأخذ مأخذها وبعض رجال تتلمذوا عليه . امـا العراقيل والمشاكل التي كانت تكتنفـه فهي خطيره للغاية ودونها خرط القتاد

اجل . يحق للتاريخ ان يمجد ويجل من بين ابطاله روح الفاتح العظيم وهو الذي ناوى اوروبا بل العـالم

بأسره ثلاثين عاماً ابلى بها بلاءً حسناً وجاهد في سبيل الله حق جهادهِ ولم يكن لديه سوى مايتين وخمسين الفاً من الجنود التي تركها له اجداده العظام ميراثاً وعدة. وقد استولى بهم على ست عشرة مملكة ومايتي مدينة محكمة وجعل دولته الحكومة الوحيدة التي لها الحول والطول والقوة والمنعة في ذلك الزمان

وللفاتح مأثرة بقاء هذه الدولة مصانة من العطب فان الفتوحات التي سبقته وكان من ورائها ضبط بعض البلاد في الاناضول والروملي كانت عرضية سريعة الفناء كالجزر وما يليها مما يتكون عادة عند حدوث طوفان كبير او سيل عرم في ارض ذات شعوب ومنعرجات واغوار وانجاد وعند زوال السبب تبطل المسببات

فهو الذي ضرب في عرض هذين القطعتين ووسع حدود بلاده وحمى حماها وأمن عليها من كل خطر لانه لم يدع للاعداء سوى قلاع قليلة كبلغراد واينابختي وغيرهما بعد ان ضرب عليها نطاقاً من الحصون والمعاقل

فبضبطه جزر الارخبيل حفظ ثغور بلاده وبجهاده العنيف جعل البحر الاسود كبحيرة عثمانية وبتحكيمه كل النقاط المهمة عَلَى حدود بلاده امن الغوائل وباتخاذه نقل رعاياه المختلفي المذاهب والمشارب من بلدٍ الى آخر عادة مفيدة وبدعة حسنه ساوى بينهم من حيث العدد والحقوق ودرأ وقوع الانقسامات الداخلية والهجمات الخارجية لانه كان لديه في كل قطر ومصر قوة اسلامية كبيرة من اهليها شاكي السلاح ومتاهبين لكل نازلة وكارثة

والذي يقضي بالعجب العجاب انه بالرغم عن نجاحه في فتوحاته وحروباته الخطيرة لم يدُر في خلده ان يتجاوز بدولته الحدود الضرورية لها فانه ضرب صفحاً عن الاستيلاء عَلَى بلاد الفلاخ والبغدان والمجر في أُروبا وطوى كشحاً عن ضبط كردستان واذربايجان في آسيا وقد كن لا يقفن في وجهه برهة يسيرة من الزمن واشتغل بفتح قلعة اشقودره السنين الطوال وبذل في سبيلها

كل مجهود وموجود · وذلك لانه كان يرى ان اشقودره تعوزه في حفظ كيان بلاده وغيرها تضر بمصلحتها بالنسبة الى حالة الدولة الحيوية وقواها الموجودة اذ ذاك

ولم يقف الفاتح في ملكه عند حدود الماديّات بل اشتغل بالمعنويات ايضاً فقد دوّن القانون المحمدي وعيّن به وظائف رجال الحكومة من السلطان الى اصغر جندي وافرد فيه فصولاً خاصة في الادارة والقضاء والسياسة والجندية وبعد عرضه على كثير من العلماء الذين كانوا يؤمونهُ من مشارق الارض ومغاربها وتاييدهم بما ينوف عن مايتي فتوى من كبارهم وضعهُ موضع العمل واستعمل الشدة والمضاء في تنفيذ احكامه

ونظر الى مستقبل الدولة التي بلغت في حاضرها من الاقبال والكماليات مبلغاً عظيماً فجعل بلاده مباءة للعلم ومألفاً للافاضل الى حدّ انهُ جمع كل ما عثر عليه من ذوي الباع الطويل والاطلاع الواسع في العلوم والمعرفة وعقد بهم ديواناً دائمياً يرجع اليه في حلّ المسائل العلمية

والقضايا السياسية ولبث هذا الحال جارياً الى ما قبل عصر واحد حيث تفرقت تلك الجامعة العظيمة ايدي سبا بسبب ما اعتورها من الخلل

وفرضَ في امر التعليم طريقة الاخصاء فخصص العلوم النقلية من فقه وحديث وغيرهما في مدارس والفنون العقلية من طب وهندسة وسواها في اخرى وقد نبغ العارفون في عهده نبوغاً عظيماً لأن قاعدة توزيع الاعمال اتت بفوائد جمة ونتائج مرضية حتى ان اوروبا قلدت الفاتح بطريقته هذه قبل قرن من زماننا وجنت ثمارها الشهية

ولو ان خلفاء الفاتح مشوا عَلَى طريقته وضربوا عَلَى قوالبه لكانت القسطنطينية اليوم محور العلوم وقطب دائرة التمدن العصري ٠ اما الصناعة فكان لها منهُ ايضاً حظٌ وافرٌ ونصيبٌ كبيرٌ وكان يأتي بمهرة الصناع من البلاد المفتوحة الى العاصمة ليستخدمهم في المعامل التي انشأَها

ولم يغرب عن فكره الوضأ التجارة وكان جل مـا رمت اليه مطامعه من توسيع نفوذ العاصمة هـو فتح الابواب العظيمة للتجارة وترويج اسواقها الكبيرة

وللسبب ذاته تلقاه اجلى الجنوبين عن شواطيء البحر الاسود حتى يتمكن من استدرار تجارة آسيا بتمامها الى العثمانيين وتلفيه عقد مع البندقية اتفاقية المكوس « الجمارك » لقأ رسم طفيف لكي يستورد متاعها بكثرة

وهو اول من عاقد وعاهد الاوربيين ووضع اول حجر من اساس الصلات معهم بدليل هـذه الاتفاقية واخرى عقدها مع ملك صقليه

ويجدر بالقاريء الكريم ان يتفق معنا عَلَى ان الفاتح كان من الاعاظم الذين خدموا بلادهم واوطانهم خدمات مبرورة ومشكورة وتركوا في العالم اثراً لايمحى واسماً لا ينسى بل يزيده مرّ الايام جدة . كيف لا وقد كانت عنايته تعمّ الجزئيات والكليات وتشمل الحقير والجليل من الامور فلا يدع شيئاً الا و يتولاه بنفسه

ويسلك به المحجة البيضاء . فقد كان قائداً مدرَّباً وجندياً باسلاً في آن واحد . فاذا حلت الكريهة تلقاه الرجل الذرب الذي يشق غياهب الامور وينورها بباهر الحكمة وواسع الادراك واذا تكونت الكائنة تراه البطل المغوار الذي يستهين الموت ويزدري بالنكبات فاذا تقدم جيشهُ كان في مقدمته واذا تقهقر كان في مؤخرته وكان عارفاً بجنود جيشه فضلاً عن قواده بالذات والصفات والمكانة الحربية ومطلعاً عَلَى دخائل الامور ومكنونات الصدور فيجزي المحسن ويجازي المسيءَ

وبقدر ما اعار الاصول من العناية والدقة وجه اهتمامه نحو الفروع فيكفيك من ذلك انهُ عنى بزرع عرق الانجيل الذي يضرب بجذوره في بطن الارض ويتماسك مع التراب جيداً عَلَى ضفاف الخليج (القرن الذهبي) لئلا يمتلئ من الاتربة التي قد تنهال عليه وقد دوَّن ذلك في القانون الذي وضعهُ ليكون من جملة

اللزوميات النافعة للملكة

ولو اطلعنا اليوم عَلَى قيود الوزارات القديمة لوجدنا ان اعمال عهد الفاتح انظمها شكلاً وارتبها حالاً واوسعها تفصيلاً واجمالاً

وناهيك بزهده ورغبته عن الدنيا فانهُ اختار لنفسه زيّ العلماء من عمامة وكساء تاركاً زينة الملك بل محقراً اياها

وقد اعتبر الفاتح الادب الانساني فوق دأب الحكومة وخصائصها في ايام كانت قوة السلطنة وسطوتها في القاء الرهب والرعب في القلوب والاخذ بالنواصي والاقدام فكان يلثم يد استاذه الملا كوراني حيثما قابله ويقف قائماً للملا خسرو الذي كان افضل فضلاء زمانه او امامه الاعظم عَلَى رواية الفاتح نفسهُ حتى لو قدم عليه وهو في المسجد احتراماً لمكانته العلمية

ولما ذهب علي قوشي الى بلاد الروم عيّن له في كل مرحلة من مراحله الف درهم تُصرف في سبيل نفقاته

وجرايته حتى جرى كرمه لقاء العلماء مجرى المثل وصاروا يؤمونه من كل فج عميق

ومن هذا القبيل الملاَّجامي الذي كان اذا امتطى مطيته امسك السلطان حسين بايقرا في ركابها واخذ عَلِي شير نوايي الوزير بلجامها فانه ترك كل هذه المظاهر والاعتبارات وقصد وجه الفاتح الكريم من ما وراء النهر (١)

وكان يقضي اكثر اوقات الفراغ بالمسامرات والمحاورات العلمية حتى انك لتراه يستحضر الى مجلسه العارفين ويلقي بينهم مطلباً او مبحثاً هاما الى ان يحمي بينهم الوطيس وتاخذ الحدة حدها فيقوم عليهم حكماً . ومن المأثور عنهُ في هذا الصدد توليه الحكم في جدل اثبات الواجب المشهور بين ابن الخواجه وابن الخطيب

وكان يقدّر الكتب والمصنفات حق قدرها ويحسن

---

(١) وصل الملاجامي الى قونيه في حين ان السلطان قد قضى نحبهُ فقفل الى اهله آسفاً حزيناً

الى مؤلفيها بالهبات الطائلة والعطايا الجزيلة ويرسل النافع منها الى انحاء المملكة باوامر سلطانية لينشر ويعمم مابها من الفرائد الفوائد ويزور المدارس ويحرّض الطلاب عَلَى السعي وراء العلوم واجتنأ ثمراتها ويراسل افاضل اروبا وآسيا عَلَى لغات شتى خدمة الى المجمع العلمي الذي انشأه في بلاطه ويكتب اكثر كتبه الادبية والعلمية بخط يده شانه في كتابته محررات الدولة الرسمية

والذى يدعو الى الاسف انهُ لم يوفق الى تخليص اللسان العثماني من اللهجة الفارسية التي استحكمت حلقاتها في تلك الآونة حالة كون ان ادبيات الاول اخذت بالظهور في ايام الفاتح كبقية آثار الرقي والحضارة

ثم انهُ كان ينزع الى اتباع آثار العرب واليونان في كتاباته ولكن الرأي العام كان متمسكاً باللهجة الايرانية اشد التمسك فلم يقوَ عَلَى الوقوف امام تياره

ومما يجلب الحزن ان كل كتاباته قد لعبت بهـا

ايدي الضياع عدا عن بعض اشعار قليلة والكتاب الذي ارسله الى حسن الطويل وفيه ما فيه من التهديد والوعيد

وكان يرغب من الفنون الجميلة في الشعر والتصوير فكان حظ ادباء المغرب من سجال كرمه كنصيب علماء المشرق حتى ان شاعراً لاتينياً رفع اليه قصيدة اجازه عليها باطلاق جملة اسرى من ابناء نحلته

ولما ظفر بفتح القسطنطينية ودخلها مع جنده نادى مناديه « ان الاموال الموجودة هي غنيمة للجند واما الحجارة والاتربة فهي ملك للسلطان » واتفق انهُ دخل الى جامع اجاصوفيا فرأى جندياً يعمل عَلَى كسر حجر به تمثال فجرد حسامه ووثب عليه وهو يقول « لماذا تتعرضون لملكي »

وقد استجلب اليه جنتيللي بللنيوبي من مشاهير المصورين في ايتاليا اكراماً لصناعته واصطفاه لنفسه

والغريب من شانه انهُ كان يلمّ بجميع مصاريف

حكومته وبلاطه كأن لم تضرب تلك العوامل السياسية والادارية والامور الحربية والعلمية بينهُ وبينها حجاباً وله من قوة الحافظة وجودة القريحة ما يحار فيه العقل

ومما يدل عَلَى ذلك انهُ كان اهدى، الى بعض ملوك الطوائف خاتماً به حجرٌ كريم وقد ردَّه ذلك الملك بعد مدة عَلَى اثر تغيره عَلَى الدولة الى احمد باشا كدك فاستخرج الوزير الفص وخلطه بين بعض ماسات لئلا يشعر السلطان بذلك ولكن لم يكد يقع نظره عليه الا وعرفه وقال « ان هذا الفص كان في الخاتم الذي اعطيته الى فلان فمن اتى به الى هنا ؟ » وفي ذلك ما فيه من الذكاء الغريب

وبالرغم عن هذه الخصال الحسنة والسجايا الشريفة التي تحلي بها الفاتح فانهُ لم ينجُ من نقد بعض المؤرخين الذين اتهموه بغلاظة الكبد وسفك الدماء مما هو براءٌ منهُ فاردنا اثبات ما قالوه ونفيه بقاطع الدليل وساطع البرهان

زعم بعض مؤرخي اليونان ان الفاتح عند تسنمه عرش السلطنة امر بقتل اخيه الصغير وهو طفل لم يبلغ حدّ الفطام ولا مشاحة في ان عملاً بربرياً مثل هـذا لا يقتصر عَلَى تسويد صحائف ملك بل يكفي لالصاق العار والشنار في مملكة باسرها الى يوم القيام

نعم ان قتل بعض افراد الاسرة المالكة بدعة سيئه جرت عليها الدولة منذ عهد يلديرم بايزيد بل اعتبرتها واجباً رئيسياً وضربة لازب ووجود الفاتح ووزيره خليل باشا عَلَى طرفي نقيض واضطرار الاخير لمناوأة الاول العدأ بكل الطرائق الممكنة والوسائل القابلة واختياره كل ما يسهل له نصب الحبائل للايقاع به تجعل مجالاً للشك بل تولد ضرورة لقتل ذلك الرقيب وتعد من الضرورات التي تبيح المحظورات بيد ان كل ذلك لا يكون وان يكون من الاسباب التي تخفف فظاعة هذا الاثم العظيم والجرم الشنيع

اما والتواريخ الاسلامية التي كتبت في عصر الفاتح

وما والاه من السنين القريبة لم تذكر طرفاً من هذا الخبر بل لم تلمح اليه تلميحاً وقد كانت في حلٍ من اثباته (١)

كما وان التواريخ التي نقلتهُ خبطت بـه خبط عشواء فعلى رواية احدها ان اسم الامير المقتول حسن وعَلى زعم الاخر ان اسمه احمد والغريب ان الاميرين حسناً واحمدَ هما نجلا السلطان مراد الثاني او اخـوا الفاتح قد توفيا وهما فـي حضانة والدهما بشهادة تلك التواريخ نفسها . ويقول بعض هؤلآء المؤرخين ان امّ الامير المقتول من بيت الاسفندياري بينا تجد الثاني يدعيها من سليلة الحكم في صربيا و يزعم ثالث ان الفاتح قد عهد بقتل اخيه الى علي بك ارنوس زاده ثم عاد فانكر عليه عمله وامر بصلبه

---

(١) يريد بذلك ان الحكومات الاسلامية التي عاصرته كانت تنظر اليه بعين الحذر وتتوقع كل شر فلو صح هذا الزعم لما ابقوا عَلي ذكره «للمعرب»

فكيف يمكن التوفيق بين هذه الروايات المتناقضة المتضاربة في حين انها لم ترد في كتب الرواة الثقات

بل كيف يقبل العقل ان الفاتح الذي ذاق طعم السلطنة وهو في شرخ الشباب وما عتم ان اعتزلها باغواء بعض الوزراء الذين لم يأتوا بما آتوه الا لغاية في النفس وامل في التحكم والتصرف في الملك وانزوى في احدى المقاطعات ثماني سنين يكظم غيظهُ بل يحاول ان يقتدي بوالده الذي اراه المثل الاعلى في الزهد عن السلطنة وبهرجتها ثم يعفو عن كثير من الذين اساؤوا اليه ان يتوهم خطراً عَلَى مركزه فيسيء القصد الى رضيع تأنف الضواري الكواسر من الاجهاز عليه

ولو ... جدلاً ان السلطان امر بقتل ذلك الامير خيفة العقبى ... هل كان لا يدرك ان هناك علة اخرى للانتقاض ورقيباً اعظم هو الامير المرهون عند امبراطور القسطنطينية

ولو وقف هوءلاء المفترون عند هذا الحد لكنا سامحناهم عن هـــذه الهفوة ولكنهم نسبوا اليه قتله ابنه الامير مصطفى بعد اخيه · قالوا انه اباده لانه راود زوجة احمد باشا كدك عن نفسها في الاستانة بيد ان كل التواريخ العثمانية مجمعة عَلَى ان الامير مصطفى هلك وهو عامل ٌ عَلَى مقاطعة قرمان وان السلطان حزن لفقده وبكاه طويلاً

ولو صحّ هذا الاختلاق الذي يثبت للملاء ان حب الفاتح للعدالة افقده الحنان الابوي (١) لكان له فيه فضلٌ عظيمٌ واجرٌ كبيرٌ ولكن كيف يعقل ان يجتمع حب سفك الدماء البريئة (كقتل اخيه) واقامة الحدود الشرعية (كقتل ابنه) في قلب واحد ولم يخلق الله لرجلٍ من قلبين في جوفه .

(١) شأن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضى الله عنهُ الذي اقام الحد الشرعي علي ابنه وشاهده وهو يلفظ نفسه الاخير «المعرب»

والانكى من ذلك زعمهم انه بقربطون اثنى عشر ربيباً لاحدي العجائز لكي يعرف مَن منهم اكل بطيختها الصفراء التي تدعيها عليهم وانه امر بقطع عنق احد الابرياء ليرى بعض المصورين الشرايين التي فيه وانه قضى عَلَى حياة فتاة من جواريه قد شغفه حبها مرضاة للانكشاريين

ان الواقفين عَلَى العقائد الدينية والعوائد الاسلامية بل كل من عنده مسكة شريفة وعاطفة نبيلة يحكم لاول وهلة ببطلان هذه المدعيات فالملك الذي توصله عدالته ويدعوه ضميره الى فصل دعوى بسيطة في ديوانه هل يتصور ان تطوّح به الشدة الى بقربطون اثنى عشر شاباً في سبيل بطيخة لاقدر لها ولا قيمة وان شآء ان يرى المصور شرايين العنق افلم يجد في سجونه من الجناة الآثمين من حكم عليهم بالصلب حتى يضطر لقتل بريء في هذا الصدد؟

ولم يبلغ الضعف في الامور الى حد ان يتداخل

الانكشاريون في شؤون القصر حتى يأتي قتل الجارية عن يدهم

فلندع هذه الترهات جانباً بل نبذها ظهرياً ونرجع الى ما اثبته التاريخ للفاتح من الشدة والعنف في اعماله منها : قتله فريقاً من حكام وجنود البلاد التي استولى عليها عنوة وقوة مما دعا مورخي الفرنجة لان يسلقوه بالسنةٍ حداد ولو بدرت هذه الاعمال القاسية في عصرٍ سعيد كصدر الاسلام او في عهد كزماننا هذا بلغ فيه الرقي الفكري مبلغاً عظيماً ودرجة عالية لحق عليها النقد وحاق بها اللوم من كل جانب . ولكنها جرت على اثر دماً مسفوكة ونفوس مهدورة . بل قامت على اطلال المظالم والمغارم التي احدثتها غارة جنكيزخان المغولي وسلطة البابا اينوسان الثالث الذي اوجد طريقة الانكيزيسيون بحيث يتأثرون كل من يخالف مبادئ الكثلكة ويصلونه عذاباً اليماً

بلى انها جاءت في تلك الفترة الهائلة التي سآت

فيها الاخلاق وتعطشت الانسانية الى الدماء واشهر سيف الغدر والانتقام واندلع لسان نار العداء فلم يبق ولم يذر

كيف يسوغ لنا ان ننقد اعمال الفاتح ونستهجن وقوعها وقد سيق اليها بحكم الضرورة ومقتضيات الظروف في زمنٍ كان به رهبان الاندلس يوءذون كل مسلم عثروا عليه اشد الايذآء ليستنصروه بغياً وكرهاً حتى اذا دان بالنصرانية جعلوه طعاماً للنار ليذهب الى الاخرة مطهراً من الادناس والارجاس عَلَى زعمهم · في عصر كان به هونياد الهنغاري يأمر باعدام اسرى المسلمين والتمثيل بهم لتنبسط نفسه ويسر فوآده بسماع انينهم بدل المعازف والآت الطرب وهو جالس عَلَى مائدة الطعام · في دورٍ كان به اسكندر الالباني يعلق اجساد العثمانيين في التعاليق كانها لحوم الشياه

في حين كان به شيطان الافلاق (اي حاكمها) يقيم كل تركي القيه عَلَى الاوتاد ويملأ بهم السهول والوهاد

في آونةٍ كان بها حاكم طمشوار يسقي جنوده من الخمر الممزوجة بدماء المسلمين ويجتذ بنوا جذه لحوم الجرحى منهم قطعاً قطعاً ويقوم راقصاً فيها

في وقت كانت تستحكم فيه حلقات الغزو والسبي والقتل والظلم في الحروب التي تقوم سوقها وتشتعل نارها بين قبيل وقبيل بل بين المسيحي ومن عَلَى معتقده والمسلم وابن نحلته

ففي مثل هذه الظروف الحرجة كيف نتوقع من الفاتح مراعاة حقوق الامم وهي لم تراع الى الان بحذافيرها من اية دولة غالبة ونحن في عصر النور وعهد الحضارة

فالاولى بنا ان ندرس سيرة الفاتح ونفرق غث اعماله من سمينها لنعرف ما اذا كان اتبع فيها تعصباً ذمياً او ميلاً خاصاً اوانه تقّيد بالدواعي والايجابات السياسية والذي نعتقده نحن ان سيف الشريعة الذي تقلده الفاتح لم يجرد عَلَى احد بغير مسوغ وموجب فنسبة التعصب اليه

عاطلة باطلة

ولو كانت به نزعة الى التعصب الديني لما ابقى عَلَى المذهب الارثوذكسي وخصّ بطركيته بجزيل المساعدات وحسن الصنيع ولا زلنا الى الان نرى رسوم الانواط التي صاغها الروم وعَلَى احد جانبيها صورة الفاتح وهي اعدل شاهد عَلَى شكرانهم منه واعترافهم له بالجميل

واذا نظرنا الى الامور بمنظار التأَمل وسبرناها بمسبار التعقل نري ان الفاتح كان يعامل اسري المسلمين والمسيحيين سواسية وقد امر باعدام اسرى نترالوار ساق والتركمان من المسلمين بعد ضبطه قرمان وظهوره عَلَى حسن الطويل

ولو كان في نفسه ميلٌ لسفك الدماء لبانت آثاره في ضبطه القسطنطينية ولجرت الدماء فيها انهاراً بعد ان قاسى ما قاساه من الضنك والنصب فضلاً عن ان له ثأراً دينياً عند الاروام من عهد يلدرم بايزيد فانهم لما علموا باندحار السلطان تلقاء تيمورلنك ابادوا الحي

الاسلامي الذي اقامه بايزيد بين ظهرانيهم في القسطنطينية وقتلوا اهله عن بكرة ابيهم . والذي يكون لديه هذان السببان العظيمان وهما يدعوانه الى الانتقام فيتناساهما هل يحق القول عليه بانه عَلَى شيء من التعصب ؟

ومن الكبائر التي يلصقها به مؤرخو الروم نقض العهد وينكرون عليه منها رفضه الامان الذي اعطاه محمود باشا المسلم الى ملك بوسنه المسيحي ولنفرض ان كل ما اتوا به من الروايات التي ليس لها نصيب من الصحة ولا عليها غبار من الصدق واقعية فان كل التواريخ الاروبية مجمعة في ان الخلف بالوعود والاخلال بالعهود ميراث تركه الصليبيون للقرون الوسطى حتى انك لتجد الدول المسيحية اذ ذاك مزمعة عَلَى اعتبار عقد العهود مع من يخالف دينهم من الخدع الحربية الواجبة وتحيّن الفرص لنقض ذلك من ضروب السياسه والحكمة

يقول فولتير في فلسفته التاريخية بكتاب الملاحظات

عَلَى الاخلاق « ان عهدة الصلح التي عقدها السلطان مراد الثاني العثماني مع ملك المجر لم ترق لدى جولين سزاريني النائب البابوي في جرمانيا والسلطان لم يدع مجالاً لوقوع ما يناهض احكامها او يستدعي النقد عليها فأفتى ذلك النائب بان كل عهد وعقد جرى مع غير المسيحيين يعتبر لغواً وباطلاً واصبح بعدها نقض المبرم قاعدة في الدول المجاورة للدولة العثمانيه

فاذا كان الفاتح كال لاعدائه بكيلهم واعتدى عليهم بمثل ما اعتدوا هم به عليه فلا اثم عليه ولا حرج بل يجب ان يفاخر باعماله وهو الذي لم يجار تيار تلك الايام و يوافق الدول عَلَى مباديها بالاغتصاب والوقيعة فقد اكتفى باقامة تخوم ضرورية تقي بلاده شرّ الاعداء . وصافى البلاد المجاورة له واولاها احسن الولاء

والادلة عَلَى ذلك كثيرة منها . احتماله من حكومة مصر انكارها عليه ترميم مجاري مياه الحرمين الشريفين وصدّها اياه بعظمة وخيلاء . واهتضامه منها مداخلاتها

في بعض شؤون ذو القدرية وهي من املاكه · ومخادنته حسين بايقرا (في ما وراء النهر) وهو عَلَى بعد شاسع منه ومعاهدته مع البندقية وصقلية ووفاءه بعهده واكتفاءه بتشديد النكير عَلَى جند حسن الطويل وعدم مساسه شعبه بسوء عند ما غلبه عَلَى امره بعد ان سبق للمذكور تدميره توقات تدميراً هائلاً · ويجب ان لا ننسى ان محمود باشا الوزير الاكبر وفق الى منع الفاتح عن متابرة الحرب ومتابعة حسن الطويل بقوله « ان هذه البلاد هي اسلامية فلا تجوز الاغارة عليها »

و يعزو بعض المورخين قتل خليل باشا ومحمود باشا الى حبه بسفك الدماء · نعم ان السلطان قتل هذين الوزيرين ولكن بعد ان بلغ السيل الزُبى ولم يبقَ للصلح موضع

فخليل باشا هو اول من عمل عَلَى اعتزال السلطان للمرة الاولى ليخلوا له الجوّ وقد نسيه لها لولا عوده الى بذل كل مرتخص وغالٍ في سبيل استبقاء نفوذه

فوشاياته لامبراطور القسطنطينية من طرف خفي بفك
عقال الامير المرهون عنده وتركه حراً في بلاد الدولة
لتهيأ لهما اسباب الانتقاض وتحريضه عَلَى ابداء كل مقاومة
وقوة في الحصار ومحاولته اقناع السلطان عَلَى وجوب
ترك الحرب كما ثبت بشهادة فريق من اعيان الروم تدل
عَلَى ان الرجل لم يخلص النية ويمحض النصح في افعاله
فكان قتله جزاءً وفاقاً عَلَى تجسسه وخيانة وطنه ولو وجد
هذا الوزير اليوم بأي دولة راقية لما كان نصيبه الا نفس
هذا الجزاء حباً بتطهير البلاد من الاعداء الداخليين عَلَى
ان هناك اسباباً سياسية كبرى تدعو الفاتح الى استئصال
هذا الرجل لان الوزارة تأصلت في بيت الجندرلي
بعد علاء الدين باشا (١) واصبحت ارثاً ينتقل من الاباء
الى الابناء واضحت وزارتهم كشراكة في بيت الملك ولو
ظلت عَلَى هذا النمط مدة اخرى وتولى الملك صبيٌّ او

«١» يريد به اخا السلطان اورخان ثاني العثمانيين وهو
اول وزير استوزرتهُ الدولة «للمعرب»

اخرقٌ لنقل آل جندرلي الذي منهم خليل باشا السلطنة اليهم بدون كبير عناً كما جرى مع الاتابكة وحصل التفريق في الملك وآل امره الى الانقسام والتجزوء

اما محمود باشا فكما ترويه التواريخ هو غرس نعماء الفاتح وقد خدم الدولة خدمات عظيمة ولكنه وقع بخطأ الاعتداد بالنفس والاستئثار بالسلطة حتى انه كثيراً ما تطاول بدالته عَلَى الفاتح الى جرح آرائه وتسفيه احلامه ففي سريته عَلَى البوسنه التي كانت خطتها ضبط تلك البلاد بأسرها واسر ملكها لاخلافه بعهده خالف امر السلطان وآمن الملك في عقر داره ولكونه (اي الوزير) قرواتي الاصل واخوه وزيرٌ لذلك الملك فاعطاؤه الامان خلافاً لما اوصي به السلطان مدعاة الى الظنّ به ومجلبة للشك والارتياب

ثم توانى في نقل القرمانيين الى العاصمة فاعتزل المنصب وعند تربعه دست الوزارة للمرة الثانية حمل السلطان عَلَى الكف عن حسن الطويل بداعي فصل

الشتاء وفضل ضبط شبين قره حصار عن تأثر العدو الامر الذي ادّى الى غضب السلطان عليه ونبذه له هذا الرأي بقوله : « انما جئنا الى هنا للايقاع بالعدو وليس لضبط القلاع » ثم تماهل في امداد خاص مراد وسبّب ذلك الانكسار المريع الذي طرأ عَلَى سريته اضف الى ذلك محاولته عن اللحاق بحسن الطويل فسقط ثانياً من الوزارة

وبينما هو معتزل في بيته توفى الامير مصطفى نجل السلطان واحبهم اليه فحضر مع من حضر من الاعيان الى العاصمة للقيام بواجب التعزية عَلَى ان البعض وشى عليه بانه يسر غير ما يعلن وانه شامت بوفاة الامير لسابق بينونة بينهما في ابان مجده وايام اقباله وقد ادت به القحة الى مناضلة الامير . فخفق فؤاد الفاتح عند سماع هذا الخبر وارتعدت فرائصه ولكنه تثبت في تحقيقه حتى علم ان الوزير يقضي اوقات فراغه في لعب الشطرنج جذلاً مسروراً وهو لابس الحلل البيضاء بينما

كان الشعب باسره في عزاءٍ دائمٍ وترح مستمر . فاندفع
الفاتح بدافع التأثر العظيم عَلَى قتل وزيره الذي كفر
بنعمائه ذاكراً ماضي اعماله وخياناته في البوسنه وقرمان
وواقعة حسن الطويل وقد يكون امان الوزير عَلَى ملك
البوسنه ضرباً من الكرم والاحسان وابطائه في نقل
القرمانيين والرفق بهم نوعاً من الرحمة والحنان ومعارضته
في تجريد الجند عَلَى حسن الطويل في ايام الشتاء فتخلفه
عن محاربة العدو وتفضيله ضبط شبين قره حصار صنفاً
من التبصر وعدم عنايته بمأتم الامير شكلاً من الصلابة
في الدين والمتانة في المعتقد لانه شيء يرده العقل والنقل
ولكن كيف يكون موقف سلطان يستشعر من رجل
خيانة او اساءة الى وطنه وقد رقى به من الحضيض الى
الرفعة وشأن والد ثاكل يحس عَلَى بعض خدمه شماتة
بفقد فلذة كبده بعد ان اغدق عليه ازاء هذه الحادثة ؟
لا شك انه يفقد الرشد ويضيع الصواب

هذه هي الاسباب الجرهرية التي حملت الفاتح عَلَى

قتل الوزيرين لا كما زعم مؤرخو اليونان من انهما ذهبا ضحية امسا كهما عن الظلم وعفافهما من الجور ولو صدق ظنهم لكان الاحرى به ان يستبقي عَلَى الوزارة محمد باشا روم لمّا اساءَ الى الاهلين في قرمان ولم يعزله شر عزلة

بل لو كان الفاتح جباراً عتياً كما يزعمون لما ركب مركب الخطر واوشك ان يشهر حرباً عواناً عَلَى ملك مصر وهو يتأبى كثيراً من الجدال مع المسلمين في سبيل استرداد العلامة الملاّ كوراني قاضي بروسه الذي بارح الارض العثمانية عَلَى اثر تاثره من امرٍ ارسله اليه السلطان خلافاً للشريعة المحمدية بعد ان مزقه ارباً ارباً ورماه عرض الحائط . حاول الفاتح كل ذلك ليسترضي الشيخ ويمحو تلك الزلة . واكبر ما عزاه مؤرخو الروم الى الفاتح قولهم انه سنّ سنة في القانون المحمدي تقضي بقتل افراد الاسرة المالكة في ايام ذكرى الجلوس دفعاً للفتنة

ولو وصل هذا القانون الينا وامكننا الاطلاع عليه

لوفقنا الى معرفة نصيب هذه الرواية من الصحة ودرجة اقترابها الى الحقيقة ولكنه حرق بامر السلطان مراد لانه كان يضم بين دفتيه قيوداً وشروطاً شديدة الوطأة عَلَى السلاطين كما يرويه الخلف عن السلف او انه لعبت به ايدي العبث والضياع لسبب آخر فاصبحنا مضطرين للرجوع الى القياس والعقل وقد علم القارئ معنا ان القانون المحمدي وان كان واضعه الاول هو الفاتح بنفسه الا انه قد استقى قضاياه واستقى موارده من كل علماء زمانه الذين كانوا كسلطانهم لا يخشون في الله لومة لائم فلا يمكن ان يمالقوا او يمالؤوا فيما 'وسّد اليهم من امر الشريعة السمحاء عَلَى احكام بربرية اشد هولاً وافظع وقعاً من مظالم جنكيزخان .

وهل يعقل ان الفاتح الذي رفض بكل اباءٍ اقتراح تخيير الروم بين السيف والاسلام وقنع بالجزية منهم ان يبتدع في الملك بدعة سيئة يكون من شأنها حمل اولاده واحفاده على الاقتتال والتلاحم في سبيل الدنيا

وقبل ان ننهي كلامنا نجمل ما قلناه من ان الفاتح كان من اعاظم رجال العالم الذين امتازوا ببسالتهم ودربتهم وتحلوا بجليل الاوصاف كسرعة الخاطر وقوة الايجاد ورباطة الجأش في الازمات والشدائد · ولم يكن به ميل الى التغلب كتيمورلنك او نزعة الى الحرب والتخريب كجنكيزخان وما شاكلهما من ذوي المطامع الكبرى بل كان يرمي الى الاستعمار اكثر منه الى الفتح وكان عَلَى عظمة قدره وجليل مركزه يحب المزاح والنكات الادبية (١)

---

(١) يروون عن الفاتح كثيراً من النكات الادبية · منها ان احد الدراويش طلب اليه وهو في الصيد نصف ملكه وماله بدعوى الاخوة الاسلامية فنقده الفاتح درهماً واحداً قائلاً له : اذهب لئلا يشعر بقية اخواننا المسلمين ويطالبونا بحقوقهم فلايعود يصيبك ما اصابك الآن · وان الملا كوراني قال للفاتح « ان تيمورلنك كان يحترم العلامة سعد الدين احتراماً بالغاحده ويحمل دالته عليه لان تآليف الثاني كانت تفعل ما لا يفعله سيف الاول في بعض البلاد · اما انا فبالرغم عن قراءة تصانيفي في الحرمين الشريفين التي لا تتلى عَلَى منابرها خطبك لم يكن

وقد كان عهد دولته عرضة لامرين اما حياة او عدم .

فكان يمكن الدولة ان تجتاح برّ الاناضول وتكتسح بلاد الروم بغير عناء كبير او ان تخرج من هذا المعترك ناقضة كفيها من البلاد التي استولت عليها بالصارم الذكر وحفظتها بحرارة الشباب فالفاتح هو الذي ضرب سرادقها ورفع اعلامها بنورِ العرفان اكثر من نار السلاح

نعم انه لم يفتقد كل آماله وهو ساته في مصلحته شأن عمر بن عبد العزيز ولم يخلق جواداً يحسن الى المسيء ويوالي العدو كصلاح الدين بن ايوب رحمهما الله

الا نه لم يتأخر عنهما في اتباع سبيل الرشد واتخاذ العدل منهاجاً ووضع السيف حيث لزم واقرار الندى

حظّي منك كحظ سعد الدين من صاحبه فاجابه الفاتح على الفور ان الطلاب كانت تفد بكثرة من مشارق الارض ومغاربها لاستنساخ مصنفات سعد الدين . اما مؤلفاتكم فانتم تنسخونها وتبعثون بها الى الحرمين الشريفين وقد افحمهُ بهذ الجواب والزمه السكوت

حين وجب

نعم انهُ سفك دماء غزيرة واباد جنود كثيرة وقتل ملوك عدة وحاسب رجاله حساباً نكراً الا انه لم يتدنس قط باستعباد شعبه او قتل اهل البلاد التي تولى امرها او استعمال الجريمة والفظيعة مع المحكومين بينما كانت هذا العادات من عاديات الامور في تلك العصور المظلمة

واشد ما جازى به من الجزاء الغريب والاقصاء ان كانت الاساءة موجهة الى شخصه كما جرى له مع سنان باشا واحمد باشا

اما مزيته الوحيدة التي جعلت له بين الاعاظم مقاماً رفيعاً ومكاناً علياً وسجلت له في التاريخ سطراً مذهباً واسماً مذكوراً فهي نقلهِ الدولة من حال الى حال فقد كانت جيشاً عرمرماً فانقلبت الى جمعية مدنية فدولة عظيمة الشأن ثم حفظهُ اياها من الانقسامات الداخلية والهجمات الخارجية وتأسيسها علَى اساس متين لا تزعزعهُ

العواصف ولا تعمل فيه الانواء وها هي الان تحت حكم بيت واحد وقد جاوزت القرن السادس من سنيّ حياتها والبلاد التي تملكتها في ابان اقبالها لم يذهب منها الثمن في بحران ادبارها

ولم يتسنَّ هذا البقاء لدولة من الدول الكبرى سوى الرومانيين علَى ان التنصل بطفيف الخسارة من عظيم الصدام الذي كان يعارض سير الدولة حيناً بعد حين ودوام عرشها في سلسلة متصلة الحلقات من آل عثمان هو العمل الوحيد الذي لم يسبق مثيله لامة من الامم

والذي يجدر بالذكر ان الفاتح اتى بخلال سلطنته التي تربو عن الثلاثين عام ما يعجز عن اتيانه غيره في مئين من السنين وقد القت دولته عصاها وامتدت الى ما شاء الله ان تمتد وضربت من الكمالات والتنظيمات باوفر سهم حتى انك لتخالها طوت القرون بباهر المعجزات وجمعت الى طراوة الشباب وشجاعته قوة الكهولة وثباتها

فعظم شانها وعلا قدرها

وعلى هذا يكون الفاتح قد اختط لنفسه خطة ايجادية لم يقلد بها احداً ولا يمكن احد ان يقلده بها ولم يشبه فيها اوليفيه كرمويل الانكليزي او بطرس الاكبر الروسي او فريدريك الاعظم الجرماني مما جعلتهُ في مصاف العظماء الذين ينبغون عادة في كل قرن مرة ولا يتعدون عدد الاصابع بل في مقدمتهم لان كثيراً من العظماء رقت بهم الظروف الى اوج السعادة والكمال اما الفاتح فقد رقى بزمانه الى قمة المجد والفخار بسعيه المتواصل ودأبه المتناهي

« انتهى »

اصلاح غلط

خطا	صواب	وجه	سطر
لنوال	لنيل	٧	٩
المظاهرات	المظاهر	٢٠	٦
قنطار	قنطاراً	٢٣	١
الثلاث	الثلاثة	٢٦	٦
كانت	كان	٢٦	١٣
تستغرق	يستغرق	٢٦	١٤
وخمسين	وخمسون	٢٩	٤
خمسة	خمس	٣٣	١٢
بنير	بنثر	٢٦	٦
ودخلو	ودخلوا	٣٦	١٤
الالبانيين	الالبانيون	٣٩	٨
الى	عن	٤٨	١٠

خطا	صواب	وجه	سطر
ساعتين	ساعتان	٧٥	٣
التابعتان	التابعتين	٧٧	٨
تتساوى	تتساوَ	١٧	١٦
ويرجعوا	ويرجعون	٧٩	٨
لا تحرُ	لا تحير	٧٩	١٣
تكادان	تكاد	٧٩	١٤
مسابكاً	مسابك	٨٤	١٦
وعشرون	وعشرين	٨٦	١٢
بهمة	لمهمة	٨٧	١٢
الثلاثة	الثلاث	٨٧	١٢
الخمسون	الخمسين	٨٩	٩
العلم	القلم	٩٢	٣
وثلاثون	وثلاثين	٩٤	٨
عقبة	عقبه	٩٧	٣
حروباته	حروبه	١٠٠	١١

خطا	صواب	وجه	سطر
الذي	التي	٤٨	١٠
ان تقوم	تقوم	٤٨	١٦
واياماً	وايامٍ	٥١	١٤
ان يبقى	يبقى	٥٣	٤
مواردًا	موارد	٥٣	٧
مناهلاً	مناهل	٥٣	٧
الدعي	المدعى	٥٤	١
البغى	الباغى	٥٧	٨
كادان	كاد	٥٨	١٤
اخا	اخى	٥٩	٧
بضع	بضعة	٦١	٩
سطى	سطا	٦١	٩
الى ذلك	ذلك الى	٦٢	١
زاده والى	زاده	٦٤	٩
كاد	كان	٦٨	٧

خطا	صواب	وجه	سطر
الفرائد	فرائد	١٠٧	٣
نتوقع	نتوقع له	١١١	١٥
ليخلوا	ليخلو	١٢١	١٥
الجوهرية	الجوهرية	١٢٥	١٦
كنيمورانك	كتيمورانك	١٢٨	٥